راقصة المعبد

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم

راقصة المعبد

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ــ محمد ﷺ (سيرة حوارية) ١٩٣٦
٢ ــ عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
٣ ــ أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
٤ ــ شهرزاد (مسرحية) ١٩٣٤
٥ ــ يوميات نائب فى الأرياف (رواية) ١٩٣٧
٦ ــ عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
٧ ــ تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
٨ ــ أشعب (رواية) ١٩٣٨
٩ ــ عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
١٠ ــ حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
١١ ــ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
١٢ ــ راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
١٣ ــ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠
١٤ ــ حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
١٥ ــ سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
١٦ ــ من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
١٧ ــ تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
١٨ ــ بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
١٩ ــ سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
٢٠ ــ زهرة العمر (سيرة ذاتية ــ رسائل) ١٩٤٣
٢١ ــ الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤
٢٢ ــ شجرة الحكم (صور سياسية) ١٩٤٥
٢٣ ــ الملك أوديب (مسرحية) ١٩٤٩
٢٤ ــ مسرح المجتمع (٢١ مسرحية) ١٩٥٠
٢٥ ــ فن الأدب (مقالات) ١٩٥٢
٢٦ ــ عدالة وفن (قصص) ١٩٥٣
٢٧ ــ أرنى الله (قصص فلسفية) ١٩٥٣
٢٨ ــ عصا الحكيم (خطرات حوارية) ١٩٥٤
٢٩ ــ تأملات فى السياسة (فكر) ١٩٥٤
٣٠ ــ الأيدى الناعمة (مسرحية) ١٩٥٩
٣١ ــ التعادلية (فكر) ١٩٥٥
٣٢ ــ إيزيس (مسرحية) ١٩٥٥
٣٣ ــ الصفقة (مسرحية) ١٩٥٦
٣٤ ــ المسرح المنوع (٢١ مسرحية) ١٩٥٦
٣٥ ــ لعبة الموت (مسرحية) ١٩٥٧
٣٦ ــ أشواك السلام (مسرحية) ١٩٥٧
٣٧ ــ رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية) ١٩٥٧
٣٨ ــ السلطان الحائر (مسرحية) ١٩٦٠
٣٩ ــ يا طالع الشجرة (مسرحية) ١٩٦٢
٤٠ ــ الطعام لكل فم (مسرحية) ١٩٦٣
٤١ ــ رحلة الربيع والخريف (شعر) ١٩٦٤
٤٢ ــ سجن العمر (سيرة ذاتية) ١٩٦٤
٤٣ ــ شمس النهار (مسرحية) ١٩٦٥

٤٤ ـ مصير صرصار (مسرحية) ١٩٦٦
٤٥ ـ الورطة (مسرحية) ١٩٦٦
٤٦ ـ ليلة الزفاف (قصص قصيرة) ١٩٦٦
٤٧ ـ قالبنا المسرحي (دراسة) ١٩٦٧
٤٨ ـ بنك القلق (رواية مسرحية) ١٩٦٧
٤٩ ـ مجلس العدل (مسرحيات قصيرة) ١٩٧٢
٥٠ ـ رحلة بين عصرين (ذكريات) ١٩٧٢
٥١ ـ حديث مع الكوكب (حوار فلسفي) ١٩٧٤
٥٢ ـ الدنيا رواية هزلية (مسرحية) ١٩٧٤
٥٣ ـ عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٤
٥٤ ـ في طريق عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٥
٥٥ ـ الحمير (مسرحية) ١٩٧٥
٥٦ ـ ثورة الشباب (مقالات) ١٩٧٥
٥٧ ـ بين الفكر والفن (مقالات) ١٩٧٦
٥٨ ـ أدب الحياة (مقالات) ١٩٧٦
٥٩ ـ مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير) ١٩٧٧
٦٠ ـ تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات) ١٩٨٠
٦١ ـ ملامح داخلية (حوار مع المؤلف) ١٩٨٢
٦٢ ـ التعادلية مع الإسلام والتعادلية (فكر فلسفي) ١٩٨٣
٦٣ ـ الأحاديث الأربعة (فكر ديني) ١٩٨٣
٦٤ ـ مصر بين عهدين (ذكريات) ١٩٨٣
٦٥ ـ شجرة الحكم السياسي (١٩١٩ ـ ١٩٧٩) ١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان) بنيويورك في عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتنتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في لينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية في واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفي عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ ـ ترجمة أبا إيبان ـ ترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرانسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الخروج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاهد على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة توبليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

روعى فى إصدار الطبعة الثانية من : « راقصة المعبد » أن تكون مسبوقة بقطعة « العوالم » ، لاتحادهما إلى حد ما ، فى الموضوع والإطار : فهما تدوران حول طائفة بعينها من أهل الفن ، كما أن حوادثهما تجرى ، بالمصادفة ، فى قطار ..

العوالم (*)

إلى

« الأسطى حميدة الإسكندرانية » :

أول من علمني كلمة « الفن » ...

(*) المقصود هنا بطائفة « العوالم » فى مصر منذ نيف وثلث قرن ، وقد انقرضت اليوم .

قبيل قيام القطار من محطة مصر بنحو خمس دقائق ، نزل الحاج محمد المطيب من عربة الدرجة الثالثة ، ووقف على الرصيف بجوار النافذة يجفف عرقه ويسعل سعال « أصحاب الكيف » الذين يعيشون بأنفاس « التعميرة » ... ثم صاح :

— يا الله ... رمضان كريم ...

وسعل سعلة انتهت ببصقة كبيرة ... وألقى نظرة اطمئنان سريعة على الأسطى حميدة وجميع أفراد التخت .. وقد « انحشرن » فى مقعدين متقابلين بطرف العربة ، تتوسطهن صرر الآلات ... ثم قال :

— أديني بلا قافية رستأتكم فى ركن معتبر ... خليكو بقا كده بإذن الله لحد محطة سيدى جابر ...

فرفعت الأسطى حميدة يديها إلى السماء بقوة ..

— شيلله يا سيدى جابر .. الفاتحة يا ولاد لسيدى جابر ..

فصاح الحاج محمد بسرعة :

— بس .. حاسبى .. بلا قافية إيدك حاتوقع الرق من فوق الصره على العود تنقطم رقبته ..

— شر بره وبعيد ... شيلله يا سيدى جابر .. إلهى يجبر بخاطرنا بسره الباتع ... إلا يا حاج محمد .. دى المستعجله دى ولا المفتخر ؟! ...

— المستعجلة .. هو من غير مؤاخذة المفتخر يبقى فيه « ترسو » ؟! ...

— هليت على كده ما نطب هناك بعد مدفع الفطور ..

— على أبو التسعين ... حا تلاقوا حد من طرف بيت الفرح مستنظركم على المحطة ...

وعندئذ رنت ضحكة سخرية من سُلُم « الرقاقة » العاجزة أردفتها بقولها :

— وان ما كنش حد فى انتظارنا يا ادلعدى ... دى ساعة فطار وكل من كان همه فى بطنه ! ..

(راقصة المعبد)

فالتفتت إليها الأسطى حميدة وقالت :

— النبى تنسدى ... وتحطى على ميلتك برش ... العلوان معايه ...

فابتسم الحاج محمد وقال :

— براوه عليك يا أسطى حميدة ... أهو بلا قافيه ان ما كانش حد فى استنظاركم ، أديك معاك العلوان ...

وكانت الأسطى حميدة « بجلالة قدرها » لم تفكر فى العنوان إلا فى هذه اللحظة ... ذلك لأنها أخذت فجأة تبحث عنه فى ملابسها وفى صدرها ... ثم التفتت إلى فاطمة « الرقاصة » وقالت بقلق :

— بت يا فاطنه .. الورقه اللى اديتها لك فين ، واحنا فى الحنطور ؟؟؟ ...

فأجابتها :

— ما هى ملفوف فيها الصاجات ...

فدقت الأسطى حميدة على صدرها صارخة :

ـــ صاجات يا بت ؟ ... الورقه اللى فيها العلوان ... إلهى يسخطك ...

فتجهم وجه الحاج محمد قليلا وقال :

ـــ بقا بلا قافيه مش عارفين تستحرصوا على حتة ورقه ...

وهنا دق جرس المحطة الأولى ، فصاح جميع أفراد التخت فى وقت واحد بغير نظام ولا ترتيب :

ـــ نشوف وشك فى خير يا حاج محمد ...

ولكن الحاج محمد أشار إليهم بالسكون :

ـــ هس ... لسه ... هس ... سمع ... لسه فاضل كان من غير مؤاخذه جرس ...

ثم سعل وبصق وصاح :

ـــ يالله ... رمضان كريم ...

فقالت الأسطى حميدة وهى تبتسم بخبث :

ـــ بحق يا حاج محمد ... دا انت صايم ... الهى يصبرك ...

فلم يجب الحاج محمد ... و لم يتنبه إلى ابتسامات الخبث والسخرية التى تبودلت بين جميع أفراد الجوق ... واستمر يتمتم بذكر الله والصيام ... ثم رفع رأسه وقال :

ـــ بقا فهمتم بلا قافيه تعملوا إيه فى محطة سيدى جابر ؟ ... تسألوا على بيت محمد بك قطبى ، زى اللى مكتوب فى الورقة ... محمد بك قطبى من أعيان اسكندرية ، ألف من يدلكم عليه ...

وفى هذه اللحظة صفر القطار فصاح الحاج محمد .

ـــ هه ... يا جماعه ... مش لازمكم حاجه ؟ ...

فصرخت سُلم الضريرة :

ـــ حاج محمد ... يا حاج محمد ... لازمنا قلة ميه ...

فأجاب الحاج محمد منتهرا :

ـــ قلة ميه إيه احنا فى رمضان يا وليه ... اتقى الله واختشى على عرضك ...

فهزت نجية « الطبالة » رأسها وقالت :

— يحكم ... بقا الميه يا حاج محمد وإلا التعميره ؟! ...

فصاح الحاج محمد بغضب :

— تعميرة إيه يا مره ؟ ... وحق صيامى ...

فقاطعته نجية :

— صيامك ؟ ... صيامك أنهو ده يا روحى ... ما تقولش كده امال ... دانا شايفاك بعينى الصبح فى إيدك الجوزه وقاعد تكح وتنبر ! ...

وأراد الحاج محمد أن يتكلم فقاطعته الأسطى حميدة مغيرة مجرى الحديث فضا للنزاع ... وقالت بعد أن غمزت « الطبالة » نجية بطرف عينها :

— الحاج محمد صايم ، زى مانا صايمه ... فضكم يا ولاد من السيرة الغبره دى ... فضكم ... قطيعه ... آه ... حاج محمد ... يا حاج محمد ... شوف يا ختى ... نسيت أقول لك .. يادى الحوسه ... الأرانب أمانة فى رقبتك يا حاج محمد ... ما تنساش ترمى للأرانب فوق السطح قشر

العجور ... أمانه عليك ... السيده فى ضهرك ! ...

وهنا دق الجرس الأخير ... وعلا الضجيج من كل جانب ...

وتحرك القطار بين صياح أفراد التخت :

— نشوف وشك فى خير يا حاج محمد ...

وبين صياح الحاج محمد :

— مع السلامة ...

واختلطت هذه الأصوات بعضها ببعض ، حتى لم يعد فى مقدور الحاج محمد ولا غير الحاج محمد أن يميز كلمة « الأرانب » أو جملة « نشوف وشك فى خير » من بين هذه الأصوات المختلطة ... ومع ذلك استمر فى هذا الصياح الغريزى كل من الطرفين ... كأنما كلٌّ يصيح للصياح نفسه ، إلى أن ابتعد القطار ... وعندئذ هدأ كل لنفسه .

* * *

جلس أفراد التخت برهة من الزمن فى سكون عميق ، كأنما فراق مصر — ولو لمهمة قصيرة المدى — أدخل على نفوسهن أثرا حزنا ووحشة مؤثرة .

لم يقطع هذا السكون القاتم غير صوت سُلم الضريرة قائلة :

— يوه ... شوق يا ختى نسينا نقول للحاج محمد يشترى لنا دخان ... بقا هو بسلامته باكو السمسمون اللى معانه حايكفى طول النهار ؟! ...

فلم يجب أحد ... واستمر كلٌّ فى سكونه وإطراقه ...

وأخيرا رفعت الأسطى حميدة رأسها قليلا وتنهدت ثم قالت بتأثر :

— يا حبيبتى يا مصر !! ...

وكأن هذه الجملة كانت تعبر تماما عن إحساس الجميع ، فأطرق الكل لحظة ...

ثم بدأ كلٌّ يرفع رأسه وينظر حوله ، ليرفه عن نفسه ...

فقالت سُلم العاجزة :

— كلها بكره ونرجع تانى لبلدنا ...

وقالت نجية « الطبالة » بابتسام وعيناها ترمقان المقعد التالى :

— وهى اسكندريه وحشه ؟ ... والنبى اسكندريه روح ...

وقالت فاطمة « الرقاصة » وعيناها كذلك ترمقان بدلال المقعد التالى الملاصق :

— اسكندريه مريه ، وترابها زعفران ...

وهكذا أخذ يسرى عن الجميع ... وتتلاشى آثار الوحشة ...

فعاد الصفاء إلى وجه الأسطى حميده ، وقالت :

— سُلم ... لفى لى سيجاره ...

تناولت سُلم علبة الدخان ، وجعلت « تلف » سيجاره ، بينما أخذت الأسطى حميدة تلتفت حولها متصفحة وجوه المسافرين ، ثم نظرت إلى فاطمة ونجية ، وقالت بتهكم .

— حسره وندامه على دول ركاب ! ...

* * *

أصابت الأسطى حميدة ... فى الواقع أغلب الركاب كانوا من الصعايدة والفلاحين ... ومع ذلك فإن الأسطى حميدة ، بعيونها الكحيلة ، لم تلمح خلفها أصحاب المقعد التالى الملاصق ... أصحابه أربعة : ثلاثة أفندية ... ورابع يرتدى « بنش » وطربوشا ...

وإذا أرادت الأسطى حميدة أن تعرف أكثر من ذلك فلتعلم أن هؤلاء الأربعة من حين أن تحرك القطار لم يفتروا لحظة عن النظر إليها ، وإلى هيئة التخت ، ما عدا سُلم « العمياء » ...

وإذا أرادت الأسطى حميدة إفصاحا فلتسل عيون نجية وفاطمة ...

لفت « سُلم » السيجارة ، ثم دقت على صدرها قائلة :

— يوه ... يا ندامة للشوم .. ما معناش كبريت ! ..

وفى هذه اللحظة ظهر مفتش التذاكر ، ودق على جدار العربة « بكماشته » وصاح :

— تذاكر قليوب ...

فصاحت سُلم وهى تدير وجهها نحو مصدر صوت المفتش :

— حضرة المفتش ... ما معاكش كبريت ... إلهى ما تغلب لك وليه ؟! ...

فأجاب المفتش ببرود :

— كبريت ايه ؟ ...

فقالت الأسطى حميدة متلطفة :

— ما تآخذناش ... بس نولع السيجاره ...

فقال المفتش بتحفظ ، وبغير أن يلتفت نحوهن :

— انتم فاطرين رمضان وإلا إيه ؟ ...

وكان قد وصل إلى المقعد التالى الملاصق فسرعان ما تنحنح « لابس البنش » ورأى الفرصة سانحة للكلام فقال :

— القطار مباح لأهل الحظ يا سيدنا المفتش ! ...

فلم يجب المفتش ... بل لزم بروده وتحفظه .. وجعل يؤدى أعمال وظيفته بجد جاف ... إلى أن ابتعد ... فقالت الأسطى حميدة :

ــ يا سم على ده مفتش !! ...

فردت فاطمة وهى تنظر إلى الأفندية أصحاب المقعد الملاصق :

ــ يا نحى حقا .. ماله إتِنِط كده ومتمنطظ بعيد عنك ؟!..

فتنحنح « لابس البتش » وقال :

ــ ما هو اللى زى ده — من غير مؤاخذه — فاهم نفسه الحكومة ...

فصادقت فاطمة على كلامة ... ثم أخذ الجميع ، « العوالم » من جهة و « الأفندية » من جهة أخرى ، يتحدثون لحظة على حساب هذا المفتش ... إلى أن قال أحد الأفندية :

ــ جرى خير .. الحمد لله ...

وقال الثانى بلطف :

ــ الكبريت معانا يا ستات ...

وزاد الثالث :

ــ ومعايا سجاير كمان ..

ثم تنحنح « لابس البنش » وقال :

ــ حضرتكم نازلين فين .. ولو فيها رزالة ؟ ...

فردت سُلم بسرعة كأنها مغتبطة بمعرفة هؤلاء الذين معهم الكبريت والسجاير :

ــ سيدى جابر يا ادلعدى ...

فصاح الرجال :

ــ زينا بقا ... سكه واحده انشاء الله ... احنا نازلين اسكندريه ...

وأضاف أحد الأفندية :

ــ الليلة بإذن الله نصلى التراويح فى سيدى أبو العباس ...

وتنحنح « لابس البنش » مرة أخرى ثم قال :

ــ أظن حضرتكم مسافرين فى فرح ؟ ...

فقالت الأسطى حميدة بعظمة وتفاخر :

ـــ أيوه يا فندم .. فرح اسم الله محمد بك .. محمد بك ... إيه يا بت يا فاطنة ؟ ...

فردت فاطمة بسرعة :

ـــ محمد بك قطبي ...

فنظرت الأسطى حميدة إلى الأفندية وقالت :

ـــ محمد بك قطبي ... من أعيان اسكندرية على سن وربع ...

ـــ أنعم وأكرم ...

وأردف أحد الأفندية :

ـــ محمد بك قطبي ... أظنه راجل كبير ؟! ...

فأجابت سُلم العاجزة :

ـــ العريس ؟... لا وحياتك الا حته جدع خفة مشلبن يشفى العليل ! ...

فالتفتت إليها نجية قائلة :

ـــ أنت يعني شفتيه ؟؟...

فردت سُلم :

ـــ الحاج محمد كان بيقول العريس جدع صغار ...

وفي هذه الأثناء أخرج أحد الأفندية من جيبه علبة السجاير وأدارها على أفراد التخت ، وقال وهو ينظر إلى فاطمة « الرقاصة » :

ـــ أظن الست الصغيرة هي اللي حاتلم النقطة ؟؟...

فأجابت فاطمة بدلال :

ـــ أيوه يا فندى ...

وقال آخر وهو ينظر إلى نجية :

ـــ الست أمال إيه ؟ ...

فأجابته نجية بابتسام :

ـــ دربكه يا فندى ...

وقال الثالث « لابس البنش » للأسطى :

ـــ احنا من حق بدنا نتشرف بالاسم الكريم ...

فأجابت الأسطى حميدة بخيلاء :

— حميده المحلوية .. واسأل فى حتة باب الخلق ألف مين يدلك ...

فقال الجميع با حترام :

— أنعم وأكرم ...

ثم قال أحدهم وهو يشير إلى العود :

— حضرتك بقا الأسطى العواده ؟ ...

فأجابت :

— أيوه يا فندم ...

فتنحنح « لابس البنش » وقال :

— ما شاء الله ... ما شاء الله .... العود سلطان الطرب ... يا سلام ! ...

وقال آخر :

— معلوم .. دا أبو المغنى والمحظوظ ...

ثم صمت الجميع لحظة .. قطعتها سُلم بقولها :

— يعنى ما حدش سألنى أنا رخره أبقى إيه ؟! ...

فارتبك الرجال وخجلوا قليلا ، وتمتموا باعتذارات واهيه ..

ثم أراد أحدهم التخلص من هذا الموقف ، فأخرج من جيبه علبة السجائر وأدارها من جديد على أفراد التخت ... غير أن سُلم بعد أن مدت يدها وتناولت سيجارة قالت عابسة :

— بس .. كتر خيرك يا فندى ... احنا مـا نشربش غير « سمسون » فرط ماركة الغزالة ! ...

وهنا كان القطار قد وصل إلى محطة قليوب ، فأبى الأفندى إلا أن يشترى لسُلم باكو سمسون من المحطة ..

ما غـادر القطـار محطـة قليوب حتى كانت العلاقـة قـد استحكمت تقريبا بين أصحاب المقعد التالى الملاصق وبين هيئة التخت .. فتنحنح « لابس البنش » وقال :

— بقى يا أسطى حميده صلى على النبى ...

فقالت :

— اللهم صلى وبارك عليه ...

فاستطرد « لابس البنش » :

ـــ بقا احنا ولا مؤاخذه ناس صايمين ، والصايم له الحق فى التسالى ... والا أنا غلطان ؟! ...

وأردف أحد الأفندية :

ـــ والله تكسبوا فينا ثواب !!...

ـــ لأ ... وكان يبقى زكا عن فطاركم ...

فأجابت الأسطى حميدة وهى ترجج حاجبيها بعود ثقاب :

ـــ صوتى مبحوح شويه ...

فقال « لابس البنش » :

ـــ صوتك المبحوح ده سلطان الطرب ...

وقال أحد الأفندية :

ـــ أنا عايز اسمع « فى العشق قضيت زمانى » لأن نعيمه المصرية ...

فقاطعته الأسطى حميدة صائحة باحتقار :

ـــ يا دهوتى ... نعيمه المصرية تعرف تقول « فى العشق قضيت » !!!....

فقال الأفندى بخبث :

ـــ ما أنا بقول كده برده ..

وهزت سُلم رأسها ثم قالت :

ـــ يا حضرة الأفندى اللى يسمعنا ما يسمعش نعيمه المصرية ...

فأجاب الأفندى :

ـــ أيوه ... ما هو أنا ناوى ما اسمعهاش ...

وصادقت الأسطى حميدة على قول سلم برأسها ثم صاحت بحماس وخيلاء :

ـــ قولى له ... قولى له أنا مين ؟! ... دا أنا حميده الحلويه يا مزغرطات ...

فصاح « لابس البنش » باحترام :

ـــ مفهوم يا فندم ... ونعم ...

وفى أثناء حماس الأسطى حميده انحدر رأس « ملايتها » بدون أن تشعر ، فظهر « الصفا » الذهبى البراق الذى يزين

شعرها ، كما ظهر منديل « الترتر » فى مقدم رأسها يخطف الأبصار .. وتنبه الرجال إلى ذلك ، فأخذوا يختلسون النظر إلى شعرها بين فترة وفترة ... ولاحظت ذلك منهم فاطمة « الرقاصة » فأسرعت بتنبيه الأسطى مخاطبة إياها باللغة الاصطلاحية بين « العوالم » :

— اطسا ... يا اطسا ... أفصلك نايب ...

أى « أسطى ... يا أسطى ... صفاك باين ... » .

ولكن الأسطى لم تسمع أو ترد أن تسمع ، متشاغلة بتزجيج حاجبيها بعود الثقاب ... ولاحظت نجية « الطبالة » أيضا نظرات الرجال إلى شعر الأسطى ، فسرعان ما انضمت إلى زميلتها فاطمة فى تنبيه الأسطى :

— اطسا ... أفصلك نايب ياختى ...

فلم تنتبه الأسطى ... وانتبه أحد الأفندية إلى هذه الجملة الغريبة ... فلم يفهم معناها ، وقال :

— اطسا ... اطسا دى فين ؟ ... دى وجه قبلى ...

فقال « لابس البنش » :

— لأ لأ ... دول بيضربوا بالسيم ...

واشتدت حدة فاطمة لتغافل الأسطى حميدة ولنظرات الأفندية لشعر الأسطى ، فصاحت بغيظ :

— ياختى ما تسمعى امال ... « أفصلك نايب » ...

ورددت نجية كذلك بغيظ وغيرة :

— يا ختى الحقى ... أفصلك باين ...

فانتبه أحد الأفندية وقال ضاحكا :

— أفص مين اللى باين ؟؟ ...

فاستدركت نجية بسرعة صائحة :

— يوه .. يا دهوتى ... شوف ياختى ... قال بدى أقول أفصلك نايب ... قلت أفصلك باين ..

ثم ضحكت ضحكة رنانة ... هى التى نبهت الأسطى ، فالتفتت ونظرت إليها شزرا ثم قالت :

— هلبت انسخطتى لما ترفعى الصهلولة كلها فى وسط رر ...

فقالت نجية :

— أصلى غلطت وانا بضرب بالسيم .. قطيعه ! ...

وعادت الأسطى حيدة إلى حاجبها وعود القفاب ، فقال « لابس البنش » بتوسل :

— يا أسطى حيدة ... أنا محسوبك .... التقل على الصايعين حرام ...

فأجابت الأسطى بتيه و « دلع » :

— حاضر ... من عينى ...

فقال أحد الأفندية :

— « فى العشق قضيت » ...

فأجابت الأسطى بدلال :

— حاضر ....

فقال أفندى آخر :

— مش حاضر وبس ... لأ ... احنا محاسيبك ...

فقال الأسطى :

— من عينى ... حاضر ...

فقال « لابس البنش » مشيرا إلى العود :

— العود ما هو جنبك ... أهو يا أسطى حميده ...

فأجابت « بتقل » :

— حاضر ... حالا ...

ثم نظرت إلى نجية وقالت بصوت يسمعه الأفندية :

— آه ... ياما روحى بتشفشف على فنجان قهوه ساده ...

فقال « لابس البنش » :

— لك علينا يا أسطى حميده لما نوصل بنها ...

وقال أحد الأفندية منتهزا الفرصة :

— مش نسمع « فى العشق قضيت » يا أسطى حميده والا إيه ؟ ... إحنا نرجوك رجا خصوصى ...

فأجابت الأسطى بدلال « وتقل » بنت « الكار » :

— حاضر ... امسكى الرق يا سُلم ...

ثم نظرت إلى فاطمة وسألتها همسا « بالسيم » :

— بت يا فاطنه ... بصى فى وشى ... هلبت ما حاجب خفيف وحاجب تقيل ؟ ...

وفى هذه اللحظة حضر المفتش ، ليفحص تذاكر من ركب من قليوب ... فقال لطائفة التخت بلهجته الجافة المتحفظة :

— ما زادش عليكم حد ...

فأجابته الأسطى حميدة وهى تخط حاجبها الخفيف بعود الثقاب :

— ما زاد علينا إلا الخطوط ....

فانصرف المفتش ، خشية أن تنقص هيبته بمزاح هذه الطائفة ...

وما كاد المفتش يبلغ طرف العربة الآخر ... حتى دوى فى العربة صوت هيئة التخت بأكملها مع الآلات جميعها من « عود ورق ودربكة » :

« فى العشق قضيت زمانى
وهمى اليوم يكفانى
آه ... انظروا جسمى السقيم »

فوقف المفتش مبهوتا ، ووقف كل القطار على « رجل » ...

باريس — يونيو سنة ١٩٢٧

راقصة المعبد

ذكرى سالزبورج
صيف ١٩٣٦

١

ثعبان قد انساب بين الجبال والوديان ، تارة يصعد كأنه يلاحق العصافير ، وتارة يهبط كأنه يرد الماء المنحدر من القمم ، وتارة يسعى فى نفق مظلم طويل كأنه يختفى عن أنظار المطاردين ... ذلك هو القطار القادم من « سالزبورج » الذاهب إلى « باريس » ... وكنت فى مقعدى أحمل كتابا ولا أقرأ ، وأى عين تستطيع أن تثبت على صفحة وفى القطار نوافذ ، وأمام طبيعة ترقص ، أحيانا متجردة ، وأحيانا فى أثواب عجيبة الألوان كأنها « سالومى » فى رقصة السبع الغلائل الحريرية ... شىء واحد كان يفسد علىّ هذا الروى الإلهى : صوت الآلة الكاتبة ينقر عليها مترجمى الفرنسى نقرات متصلة ، وقد خلع سترته ، وشمر عن ساعديه ، كأنما القدر قد سلطه

على صفوى يكدره فى تلك الساعة الجميلة ... ولم أطق صبرا فصحت به :

— كفى يحق رأسك اضطهادا لرأسى ... ألا ترى الطبيعة أمامك كالراقصة الفاتنة ، وأن نقرك هذا يهينها ويغضبها ؟ ...

فأجاب دون أن يعنى بالنظر إلىّ :

— الطبيعة راقصة أندلسية ... ونقرى هو صوت الصفاقات الخشبية فى أصابعها ...

ومضى فى عمله يصفر بفمه ... فقلت يائسا :

— وزاد علينا الصفير ! ... هذا « المزمار » غير « المسحور » ما حاجتنا إليه الساعة ؟ ... لقد كنا اكتفينا منك « بالصفاقات » ! ...

— تلك أغنية غجرية سمعتها فى فينا ...

فنظرت إليه شزرا ، ولم أتمالك :

— غجرية ... أقسم لك بشرفك أننا نحن الغجر ... وهل رأيت فوضى أعجب مما نحن فيه ! ... ما يقول عامل القطار لو أنه رآك الساعة على هذه الصورة ؟ ...

— يقول إننا من رجال الأعمال ... لا من رجال الفن المخابيل ... ينبغى أن تذكر أن الناشر فى « باريس » ينتظر مخطوطة كتابنا غدا ... والفصل الأخير لم يضرب بعد على الآلة الكاتبة ... أليست فرصة سانحة أن نعمل فى القطار والمقصورة خالية ؟!

لم أنبس ... وملت بجسمى كله إلى النافذة أطلب الهرب بروحى وفكرى ... لكن الآلة الكاتبة بضجيجها ، كانت فى وجهى ، على المائدة الصغيرة المتحركة التى بينى وبين صاحبى ... فنهضت ، وتركت له المكان ، واتجهت إلى نافذة الممر فى الجهة الأخرى ... فاستوقفنى ! ...

— إنك لم تعطنى عنوانك فى « باريس » ...

— ومتى كنت أعطى عنوانى أحدا ، فى « باريس » أو فى غيرها ...

— وكيف أعثر عليك ؟ ...

— إياك أن تعثر علىّ .. إنى فى باريس أريد دائما أن أكون مثل السمك فى الماء ... فإذا كان للسمك فى الماء

عنوان ، فإن لى فى باريس عنوانا ... أريد أن يتطبق علىّ قول الشاعر « هنرى هاينى » :

« إن سألتم السمك فى الماء كيف حالك أيها السمك ؟ ... لأجابكم . إنى كهنرى هاينى فى باريس ! ... » .

فرفع صاحبى يده عن العمل ونظر إلىّ مليا ...

ـــ وأعمالنا هذه ؟ ... والناشر ... إذا طلب حضورك للتوقيع على عقود ... أأقول له إن عنوانك كعنوان السمك فى الماء ؟ ...

ـــ هذا ما ينبغى لك أن تقوله بالضبط ...

فضرب « موريس » على مفاتيح الآلة الكاتبة ضربة أو ضربتين ، ثم قال كالمخاطب لنفسه دون أن ينظر إلى ! ...

ـــ أنا الذى كان يحسب أنك تنتهز الفرصة ، فترى فى « باريس » الأدباء الذين قرأوك ، ويتصورونك بخيالهم الأوروبى رجلا ذا عمامة كعمامة « ابن سيناء » ، ولحية كلحية « عمر الخيام » ، وحريم كحريم « هرون الرشيد » ، يعج

بالجوارى الحسان ، والنساء ذوات العصائب والسراويل ... آه ! ... ما أعجب منظرك حقا بين الجوارى والنساء ... أنت العدو اللدود للمرأة ؟ ... شد ما أنتم عليه !؟ ... إنك تبغض المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن يلهمك خير الكتب ... يا للنعمة الزائلة ! ... هذه الكتب التى كان مقدرا لها أن تخرج من هذا القلب النائم المتثائب ... كن على ثقة أن هذه الكتب كنا ننشر بعضها تباعا فى المجلات الكبرى ، كما يفعل اليوم كتّاب العالم المشاهير ، فتدر علينا الدنانير ... إنك أيها الكاتب الشرق لا تعرف كيف تؤكل الكتف ! ...

وقرعت سمعى الكلمة الأخيرة لجوعى وقتئذ فنظرت إليه سريعا :

ـــ أين هى الكتف ... وأنا أعطيك العهود والمواثيق ... أنى أتعلم أكلها فى مثل لمح البصر ؟ ...

ـــ أنا أدلك عليها ... أصغ إلىّ ... لقد فاتنى أن أخبرك : لحت منذ ساعة فى هذا القطار الراقصة البولونية

« ناتالى ... » التى ظهرت على أحد مسارح « باريس » منذ عامين ، ورحلت إلى فيينا للاشتغال بالسينما ... إنها حقا ذات جمال مخيف ... جمال يصعق للفور ..

فالتفت إليه مقاطعا :

ـــ أتعتمد على هذه المرأة فى أن تلهمنا الكتب التى تدر علينا الدنانير ... أم أنك تعتمد عليها فى صعقى للفور ؟ ...

ـــ فى كلا الأمرين ...

ـــ كن على ثقة أنه ما من كتب ستكتب ، وما من دينار سيدخل جيوبنا ... إنما المؤكد الموثوق منه أنى أنا الذى سيصعق للفور ... ولا مصلحة لك فى ذلك فأغلق هذا الباب أيها العزيز ، ودعنا نظفر بسلامة الوصول ...

ـــ ولكن السلامة لا تدفعك إلى الكتابة .. ينبغى أن تصهر فى لهب الحب حتى يهبط عليك الوحى ...

ـــ أسكت يا « موريس » وكفى سخفا ...

ـــ بل إنى لجاد كل الجد ...

فلم ألتفت إلى قوله ، فنظر إلىّ يطلب الجواب ... فصحت :

ـــ وإذا أكدت لك أنى اذ أقع فى الحب لا أستطيع أن أكتب سطرين ...

ـــ إذا أحببت ، فإنك لا تستطيع أن تكتب ؟! ...

ـــ مطلقا ...

ـــ ومن الذى يكتب لك رسائل الغرام ؟ ...

ـــ فى هذه المرة ليس أمامى إلا أنت ...

فتغير وجه « موريس » :

ـــ أنا ؟ ... لا ... وألف مرة لا ... إذا كانت النتيجة أنى أنا الذى ... لا يا سيدى العزيز ...

فابتسمت ، وعاد إلىّ الاطمئنان ... فاستطرد الفرنسى :

ـــ وأنت عندئذ ماذا تصنع ؟ ...

ـــ أنا واقع فى الحب ...

فنظر إلىّ محملقا :

ــ وهل الحب بئر أو جب ألقيت فيه مكتوف اليدين ؟ ...

ــ وما هو إذن ؟ ...

ــ أهو كذلك عندكم معشر الشرقيين ؟ ...

ــ لست أتكلم باسم الشرقيين ... ولكني أقول لك أصالة عن نفسي : إنه ينبغي لك أن تفهم أن الحب شيء ، والتأليف شيء آخر ...

وأدرت له ظهري ، واتجهت إلى النافذة ، وطفقت أتأمل المناظر التي تمر بي في تماسك وارتباط كأنها « فريسك » عظيمة رسمتها أيد سماوية على لوحة الفضاء ، إلى أن نبهني رنين الصينية النحاسية يقرعها خادم عربة الأكل معلنا ساعة الشاي ... فنظرت إلى صديقي :

ــ الشاي يا « موريس » ... بطني قد رقص طويلا « رقصة الجوع » حتى خارت قواه ! ...

فلم يجب ... وأشار إلي برأسه أنه باق للعمل ... فتركته وأسرعت ، فقطعت دهاليز العربات على غير هدى ، أبحث عن

عربة الطعام ، وأنا لا أذكر إن كانت في مؤخرة القطار أو في المقدمة ... وكانت سرعة القطار تدفع المار إلى الارتطام بالجدران ، وبالمسافرين الواقفين في الممر ، وأكثرهم من النساء النشطات ، أضجرهن طول الجلوس ... فمضيت حذرا خائفا أن يختل توازني فأقع على امرأة ، والويل لي عندئذ ، وإن كان من وراء ذلك : الإلهام ، وصنع الروايات ، وامتلاء جيب « موريس » بالدنانير والفرنكات .

وبينا أنا أجتاز عربة من العربات وقد بدا علي الجهد : إذا رجل كهل أبيض الشعر ، في ثياب صفراء غير نظيفة كثياب عمال القطار ، يقطع الممر في نشاط عجيب . فما إن دنا مني حتى أرسل إلي ــ من عينين صغيرتين خلف منظار سميك ــ نظرة باسمة ، فيها ألفة ، وفيها دعوة خفية إلى الكلام .. وغلب علي تحفظي وجمودي ، فلم أعبأ به ، وهممت بالإعراض عنه ، وسرت في طريقي ، فأسرع في أدب ولباقة ، ودفع أمامي باب العربة التي أريد اجتيازها ، وهو يقول في لهجة فرنسية

غريبة ، لكنها مفهومة ، وفى نبرة مرحة تنم عن خفة روح :

ـــ ما زالت لدى كما ترى قوة الشاب ! ...

فابتسمت ، وسألته من فورى عن عربة الأكل أين موقعها ؟ ... فلم يمهلنى ، وخف أمامى يقودنى إليها بنفسه ، ويفتح أمامى الأبواب المعترضة بقبضته الصلبة وحركته النشطة ، حتى أشرفنا عليها ، ولمحت موائدها فانطلقت نحوها من فرط جوعى ... وجمدت عيناى على أطباق الزبد وأوانى العسل ... لا أبصر غيرها فى المكان ، ونسيت الشيخ الذى قادنى ، واستدرت بعد هنيهة أنادى الجرسون كى يجلسنى فى موضع غير محجوز ، فألفيت الشيخ بالباب ينظر إلىّ فى ابتسامته الوديعة ، فأعرضت عنه ، فتركنى ووقف مع الطهاة يحادثهم ، فتنفست ، وقلت فى نفسى :

ـــ « لو صاحبت هذا الرجل ذا الثياب الصفراء المرصعة ببقع الزيت والغبار ، لكان جزاؤنا الطرد من هذه العربة ، فالخير فى أن أتجنبه الآن إذا كان لى فى الأكل مطمع » ـــ .

وأبطأ علىّ الغلام ، فرفعت بصرى عن الزبد والعسل والخبز المحمر ، وأدرته فى المكان أبحث عن مائدة ، فإذا الموائد قد شغلت ، ولم يبق غير كرسى خال فى مائدة تجلس إليها سيدتان فى مقتبل العمر ، إحداهما ذات جمال مخيف حقا ... ما أن وقعت عيناها على عينى حتى أشحت بوجهى عنها كما يشيح الإنسان بوجهه عن الشمس ... ووجدت عن يسارى مقعدا خاليا يجلس إليه رجل من ثراة الأمريكان وزوجه ، فسقطت عليه كما يسقط العصفور الذى أصابته عين الأفعى ، وهدأ روعى قليلا ، ورفعت رأسى ، فرأيت الأنظار كلها مصوبة إلى هذه الجميلة ، وخيل إلىّ ـــ ولعل الأمر لا يعدو الخيال ـــ أنه ما من واحد يجرؤ على الدنو من المائدة التى عليها الجمال ، وخيل إلىّ أيضا أنه ما من عين تصمد طويلا أمام هاتين العينين ! ... كهرمان وذهب وعسل مصفى ، مزجت ألوانها فخرج منها لون لست أدرى ما اسمه بين الألوان : هو لون هاتين العينين ... وأقبل الغلام بأباريق

الشاى واللبن ، وصب منها لى فنجانى ، ومضى ولم أبد بعد حراكا ... وبينا أنا على هذه الحال إذ عيناى تبصران فى دهشة ذلك الشيخ ذا الثياب الصفراء قد عاد فدخل العربة ، ومشى بخطا ثابتة مطمئنة إلى مائدة الجميلة ، وجلس فى المقعد الخالى إلى جانبها بغير تردد ولا اضطراب ... وما أن استقر به المجلس حتى ثبت منظاره على أنفه ، وأرسل إليها نظرة فاحصة هادئة ، فهالنى الأمر ، قلت فى نفسى :

— «هذا الرجل مطرود مطرود» ...

وحانت من الرجل التفاتة إلىّ وابتسم ، فعجلت وملت بوجهى عنه ... وبودى لو أصيح فى الناس قائلا :

— «أقسم لكم أيها الناس أنى لا أعرف هذا الشيخ ، ولم أره قط فى حياتى» ...

غير أنى رأيت عجبا بعد قليل :

ما كدت أجازف وأختلس النظر إلى تلك المائدة حتى وجدت الشيخ يحادث الجميلة ، وهى تحادثه ، وقد أضاء السرور

وجهها فازداد إشراقا على إشراق ، وإذا هى تبسم وتضحك ، وتغرق فى الضحك ، فعجبت وقلت فى نفسى :

— من هذا الرجل الذى استطاع أن يضحك الجميلة ولما يمض على جلوسه خمس دقائق ؟!...

واستغرب الأمر كذلك بعض الركب ، فنظروا إليه ... وجاء الغلام فطلب إليه الشيخ سلة فاكهة غضة منوعة ، فانحنى له الغلام انحناءة تدل على تقدير له ومعرفة لشخصه ... وكانت المرأة الأخرى صامتة قد اتجهت بوجهها شطر النافذة ، وقد ظهر من شأنها أنها لا تعرف الجميلة ، وأنها — على ملاحة وجهها هى كذلك ورشاقة قدها — يعيبها جمود وصلابة ينمان عن جنسها الألمانى ... ولكن ... لم يمض قليل حتى كان الشيخ قد أضحك أيضا تلك الألمانية ، وأخرجها لينة طيعة من محيط نفسها الجامدة كما يخرج الساحر البارع المكنون من مخبئه ، وإذا المائدة قد دبت فيها روح خفيفة لطيفة ، وإذا الجمال الصامت قد تحرك ، وشعّت منه تساؤلات مرحة فتنت

لب الحاضرين ... وإذا هذا المطعم الراكض يكاد يحس كأن روحه النابضة تلك المائدة التى جلس إليها الشيخ بين الجميلتين ... وتكاد هذه العربة تشعر من فرط المرح بخفتها عن بقية العربات ، وبرغبتها فى الارتفاع والرقص بمن فيها فوق « الخط الحديدى » ...

جرت فى أمر هذا الرجل العجيب ، وقد نزل من نفسى منزلة الاحترام ... وصحت من أعماق نفسى :

— « إن هذا إلا أستاذ عظيم » ...

ومنذ تلك اللحظة جعلت همى أن أترضاه ، فاكثرت النظر إليه متربصا به ، علنى أصيب منه فرصة ، غير أن الخبيث — وقد أدرك ما بى — لم يعطف علىّ بنظرة ، ولم يحفل بأمرى ولم يمل بوجهه ناحيتى قط ... ولم أقنط من رحمته ، وجعلت أتابعه بنظرى وسمعى ، وأراقبه وهو يحادث الجميلة بالفرنسية فتضحك ، ويداعب الأخرى بالألمانية فتضحك ، وأنا لا يضحك قلبى ولا يبتهج ، بل يمتلئ حسرة ويأسا وخوفا أن يمعن

هذا الرجل فى تعذيبى بهذا الإهمال ، وفى يده الآن مفتاح سعادتى وشقائى ... وأراد أخيرا أن ينادى الجرسون ، فوقعت منه علىّ نظرة عابرة ، فأسرعت بقلب واجف وأمل متجدد ، وابتسمت له ، وانحنيت برأسى تحية له واحتراما ، ولكنه ازور فى الحال بوجهه عنى ، كأنه لا يعرفنى ، وكأنه لم يرنى قط فى حياته ... فهمست فى أعماق نفسى على حال كسيرة ويأس أليم وغيظ محرق :

— « أيها الشيخ الملعون ... عملتها وانتقمت لنفسك شر انتقام » .

ومضت لحظات لست أدرى ما حدث فيها ، غير أن فنجانى ظل على حاله ، لم أرشف منه سوى مرة أو مرتين ، والزبد والعسل والخبز المحمر لم أضع يدى فى طبق من أطباقها ، ولم يبق منى إلا إنسان جالس لا حراك به ، ينتظر فتات النظرات من مائدة الجمال ... ولعل هيئتى كشفت للرجل عن دخيلتى ، وكأنما أدركته بى شفقة ، وكأنما أحس أن الدرس

الذى أعطانيه قد أثمر ... فإذا هو فجأة قد أقبل علىّ بوجهه ، ونظر إلىّ نظرة صريحة باسمة ردت الروح إلى جسدى ... وفى لباقة غريبة ، وبمناسبة لست أدرى كيف أوجدها ، وجه إلىّ الكلام فى جو من الألفة ، نسج خيوطه للتو ، حتى كاد الحاضرون وكدت أنا نفسى أعتقد أن المعرفة بيننا قديمة العهد قوية الأسباب ، دون أن أدرى أو دون أن أذكر :

— إنك قادم من « فيينا » ؟...

قالها الشيخ بفرنسيته الغريبة المفهومة .. فسأسرعت بالجواب :

— لا ... بل من « سالزبورج » ....

— حيث المهرجان الموسيقى ... شأنك إذن شأن السيدة ...

قالها الرجل مشيرا إلى الجميلة ، ثم إلىّ فى حركة لبقة هى أبلغ من التقديم ، وإذا هى تقبل علىّ فى نظرة المتسائل عن أمر حضورى المهرجان ... فتعلقت بأذيال هذه النظرة ،

ونهضت من مقعدى فى الحال كمن وخز بإبرة ، وذهبت إليهم وجلست فى المقعد الرابع الخالى إلى جانب الألمانية ، وأنا أقول فى نفسى :

— « إن فاتتنى هذه الفرصة فموت مثلى خير من حياته ! ... » .

ونظرت إلى الجميلة أمامى وإلى الشيخ الجالس بجوارها . وقلت على عجل :

— سيدتى حضرت كذلك المهرجان ؟ ..

— نعم ... كان بديعا ... ألا ترى ذلك ؟! ...

— وأى إبداع ! ... لقد أمرضنى المطبخ النمسوى ورمى معدتى بالداء ، فشفتنى الموسيقى النمسوية ووجدت فيها الدواء ...

فقال الشيخ باسما :

— إذن لقد خرجت من المهرجان لا لك ولا عليك !...

فضحكنا ... وقلت للشيخ :

— لقد خرجت مع ذلك بشيء لا يقوّم بمال : مشاهدتى أوبرا « أورفيوس وايردويس » للموسيقى « جلوك » ...

فنظرت إلىّ الجميلة فى دهش :

— أليس كذلك ؟! ... حقا .. إنها كانت أعجب وأبدع ما عرض هذا العام ... إنى أدهش كيف أن هذه « الأوبرا » المعروفة بما فيها من إملال للنفس ، قد انقلبت تحت عصا « برونوفالتر » شيئا يسحر اللب ... لقد جعل منها قطعة « باليه » راقصة طائرة ، كأنها من تأليف الملائكة ... أتذكر منظر الجحيم ومنظر الفردوس ... مما أبدعه « كوريجراف » ... !

— يخيل إلىّ يا سيدتى أن « جلوك » كان قد وضع قطعته لتؤدى على هذه الصورة الراقصة ، لا لتغنى كما تغنى بقية الأوبرات ، لقد قالت مثل هذا القول الراقصة العظيمة « إيزادورا دونكان » وهى أعرف الناس فى نظرى « بجلوك »

... ماذا تراها كانت تقول لو رأت اليوم « أورفيه » كما عرضت هذا الصيف فى « سالزبورج » ؟! ...

فقالت الجميلة:

— أرأيت « إيزادورا » ؟ ...

— رأيتها مرة منذ عشر سنوات فى رقصتها الأخيرة ... وفى اليوم التالى نشرت الصحف خبر موتها الفظيعة فى « نيس » مخنوقة فى غلالتها الحريرية ... لقد تواطأت على قتلها تلك الغلالة التى طالما رقصت بها ، مع الهواء الذى طالما أحبت الرقص تحت جناحيه ! ... لقد حزنت عليها وقلت فى نفسى :

— شاء القدر ألا تموت حتى أراها ، وتريح لعينى الستار عن عالم رائع كنت أجهل وجوده من قبل ... واأسفاه عليك يا « إيزادورا » ! ...

وعندئذ قطع الشيخ الحديث وهو ينظر إلىّ :

— يخيل إلىّ أنك أنت أيضا يا سيدى من رجال الفن :

موسيقى ؟ ... مصور ؟ ... شاعر ؟ ... روائى ؟ ...

فقلت له باسما :

— صدقت فراستك ... أنا من أولئك النفر الذين خلقُوا كى يملئوا الدنيا كذبا وتمويها ...

فقال الشيخ للفور :

— إن أردت الحق ، فكل رجال الفن فى الكذب سواء ... ولكنى أحسب الروائىّ أطولهم باعًا وأملأهم جعبة ...

— سيما وإن كان شرقيا من صلب مؤلفى « ألف ليلة وليلة » ...

فقالت الجميلة وهى تنظر إلىّ باسمة :

— يسرنى حقا أن أرى كاتبا من سلالة تلك الفئة العجيبة ... ولكنى لا أحب أن تسمى فنك كذبا ... إن الكذب المتسق هو أصدق من الصدق ... ما الفن إلا كذب متسق جميل ...

فرفعت عينى إلى السماء ، وقلت فى شبه دعاء إسلامى :

— اللهم نسق لى كذبى ! ...

فضحكت الجميلة وضحك الشيخ ، وحتى الألمانية ضحكت من منظر كفىّ المرتفعتين إلى السماء ، على نحو لعلها ما رأته إلا فى الأفلام السينمائية التى تمثل الصحراء والبدو من المسلمين ... وكانت الألمانية قد فرغت من تناول الشاى ومحاسبة الغلام ، ورأت الحديث يدور بالفرنسية التى لا تعرفها ، فنهضت وحيتنا بإشارة من رأسها تحية سريعة ، وانصرفت إلى عربتها ، وتركتنا نحن الثلاثة فى ضحكنا وابتسامنا وسرورنا ... وكان مقعد الألمانية أمام الجميلة وجها لوجه ، وعن يمينها النافذة البلورية ، فبادرت وانتقلت إلى مقعدها الخالى ... وأنا أقول للشيخ :

— وأنت يا سيدى ... هل كنت معنسا فى « سالزبورج » ؟ ...

— لا ... مع الأسف ... إنى قادم من « إنسبروخ » حيث كنت طول وقتى أتسلق الجبال ، ولم أزل كما ترى بثياب التسلق القذرة .. إنى من قدماء المتسلقين الهواة ... لذلك

أعترف لك أن الموسيقى التي تهز مثلى هي موسيقى الطبيعة ...

ـــ هنيئا لك يا سيدى هذه الموسيقى ... ومَن غير الموهوب يستطيع أن يتذوق « سانفونيات » الطبيعة الصوتية الضوئية فى آن ؟ ... ما الفن إلا سفير بيننا وبين « الطبيعة » يصف لنا « بلاطها » وما فيه من أبهة وبذخ وعجائب وأسرار ...

فلمعت عينا الجميلة ، وقالت كأنها تخاطب نفسها :

ـــ الفرق بين الفن والطبيعة فى الرقص ، كالفرق بين « بافلوفا » و « إيزادورا » ...

فحدقت فيها ، وقد أخذنى الدهش :

ـــ ملاحظتك يا سيدتى غاية فى الصواب ... وإن كان علمى بفن الرقص غير غزير .. نعم .. عند « إيزادورا » الإنسان فى الطبيعة شأنه ـــ سواء بسواء ـــ شأن الزهرة فى المروج ، والشجرة فى الغابة ، والسنبلة فى حقل الحنطة ... له رقصته الطبيعية ، وله تموجاته المتسقة مع الهواء

العابث بشعره المرسل الطائر ... فهو فى غير حاجة إلى تقليد « موت البجعة » أو « مشية العصفور » ...

فقالت :

ـــ ولكن الفن مع ذلك هو الجمال المصنوع ... إن من فضائلنا ـــ نحن الآدميين ـــ أننا استطعنا أن نصنع الجمال فى معاملنا البشرية ... ولم نكتف مثل بقية عناصر الطبيعة بأن ننتظم نغما فى نشيدها العام وحركة فى رقصتها الكبرى ...

فقلت لها على الفور :

ـــ أنت تحبين « بافلوفا » ...

فأجابت باسمة :

ـــ وأنت تحب « إيزادورا » ...

فصاح فينا الشيخ بغتة :

ـــ مهلا ... مهلا ... وأنا أحب من ... ؟ أتوزعان فيما بينكما « الأحبة » وتتركانى بغير « حبيب » ؟! ...

فبرق فى رأسى خاطر ، وتذكرت من فورى حديث صاحبى الفرنسى عن الراقصة البولونية ، وأيقنت من كلام الجميلة فى الرقص ومن جمالها « المخيف » أنها ولا ريب هى ...

فأسرعت وأجبت الشيخ باسما وعيناى إلى الفاتنة :

ـــ أنت تحب « ناتالى ... » ؟ .

فتلون وجه الفاتنة على نحو أدركت معه أنى فى حضرة الراقصة ... والتفت الشيخ إلى جارته قائلا فى لباقة وكياسة :

ـــ لو أذنت أن أكون من عبادك المعجبين ! ...

فأسرعت قائلا للشيخ فى ضراعة :

ـــ مهلا ... لا تتركنى ... خذنى معك أنا أيضا عبدا من العباد الخاضعين الساجدين ...

فضحكت الجميلة ضحكة رقيقة كشفت عن ثغر لؤلؤى أثمن من كنوز سليمان ... وقالت :

ـــ أتحبان الرقص بهذا المقدار ؟! ...

فقلت من فورى :

ـــ وكيف لا نحبه يا سيدتى والكون كله رقص ... إن المجموعة الشمسية فى دورانها الأبدى ليست إلا رقصة « باليه » ! ...

فقال الشيخ فى تنهد المشتاق :

ـــ كم ترى ثمن الكرسى لمشاهدة هذا « الباليه العلوى » ؟ ...

فقلت باسما :

ـــ أقل ثمن للحضور فيما أعتقد « حياة » الإنسان ...

فقال الشيخ باسما :

ـــ تقصد ولا ريب بأقل ثمن : « أعلى التياترو » ! ...

فضحكت الجميلة وقالت :

ـــ ليس الثمن باهظا على أى حال ... على شرط أن يسمح لنا برؤية هذا المشهد العجيب ! ...

فقال الشيخ :

ـــ اطمئنى يا سيدتى ... قلبى يحدثنى أن كراسينا

محجوزة مقدما ، من قبل أن نولد لمشاهدة هذه الحفلة ... وكل ما أرجو أن نوضع نحن الثلاثة فى مقاعد متقاربة كما نحن الآن ... حتى نتبادل الآراء فيما نشاهد ، كما نتبادلها الآن ... ينبغى إذن أن نتعارف من الساعة حتى لا يضل أحدنا عن الآخر ... أتسمحان ؟! ...

وأخرج الشيخ من جيبه محفظة تناول منها بطاقة ، وفعلت عندئذ فعله ، وكذلك فعلت الجميلة ، وتبادلنا البطاقات ... وعلمت أن صاحبى الشيخ من أصحاب المصانع الموسرين فى بوخارست ، وأن الجميلة هى حقيقة « ناتالى ... » وأردت أن أحيى هذا التعارف بزجاجة من الشمبانيا ، فناديت الغلام وطلبت إليه ذلك ، فاعترض الشيخ محتجا فى ظرف أن هذا الواجب من نصيبه ... ثم اتفقنا آخر الأمر على أن ندعه يفعل ما يشاء فى العشاء ... وجاءت الشمبانيا فى وعائها الفضى محاطة بالثلج ... وفض الغلام خاتمها ، وملأ الكؤوس ، وما كدنا نرفعها إلى الشفاه حتى دخل صاحبى

« موريس » عربة الأكل ، ووقع نظره علىّ فى الحال وأنا على هذه الحال ، بين جمال باهر وشراب فاخر ، ونعيم ليس بعده نعيم ، فارتسمت على فم الملعون ابتسامة أدركت لوقتى معناها ، ولم يمهلنى حتى أتدبر أمرى معه ، ودنا حتى بلغ مائدتنا ، فانحنى أمامى باحترام وقال :

ـــ سيدى « عدو المرأة » لم يصعق بعد على الفور ؟!...

ثم اعتدل واستدار ، ورجع من حيث أتى ... كأنه كان قد جاء ليلقى هذه الكلمة ويمضى ...

وبدا الدهش على وجه الجميلة والشيخ ، وكأن أعينهما تسأل عن معنى ذلك ...

ولم أر بدا من الإفصاح ... فقلت :

ـــ هذا رجل يرى ألا نفع لى ولا فلاح إلا إذا صعقنى حب امرأة ! ...

فصاح الشيخ :

ـــ وحق هذا الشراب المقدس إن الرجل قد صدق ! ...

ونظرت إلى الجميلة باسمة :

ـــ ولكنه قال أيضا : إنك « عدو المرأة » ...

فأردت أن أشير بالإيجاب ، فبادرني الشيخ مقاطعا :

ـــ إياك أن تكفر في حضرة الجمال ... ألست معي من العباد الصالحين الخاضعين ؟! ...

فقلت في شيء من التمرد :

ـــ إني أحب الجمال وأكره المرأة ...

فقالت الجميلة في هدوء وابتسام :

ـــ لماذا تكرهها ؟ ...

ـــ أأكون صريحا ؟ ...

ـــ نعم ...

ـــ لأن المرأة يا سيدتي مخلوق ... ماذا أقول ... أرجو عفوك ... إني كلما تذكرت أثرة المرأة وظلمها ومنطقها الغريب ... إليك يا سيدتي مثلا بسيطا ... ما جرى في تلك القطعة الموسيقية التي شهدناها ... لقد رأينا «أورفيوس» المسكين

في الفصل الأول يبكي على قبر زوجته « إيروديس » ويستبكي الآلهة بألحانه الحزينة وقيثارته الشجية ، حتى أذنوا له أخيرا بالبحث عنها في الجحيم والفردوس ... إلى أن وجدها ... وأراد الخروج بها إلى الدنيا ، فلم تأب عليه الآلهة ذلك ، على شرط ألا ينظر إلى وجه زوجته « إيروديس » قبل أن يجتازا مملكة الموت ، وإلا بقيت زوجته إلى الأبد في مملكة « بلوتون » ، وتذكرين يا سيدتي بعدئذ كيف أن تلك المرأة قد نسيت كل ما فعل زوجها من أجلها ، وأنها عاتبته مُر العتاب ، لأنه « فقط » لم ينظر إلى وجهها ... وما زالت به حتى أنسته وعده ، ونظر إليها ، فسقطت لوقتها ، وعادت روحها إلى مملكة الظلام ... فبكى الرجل من جديد ، واستبكى ... إلى آخر القصة ... ولو كنت في مكانه لتركت هذه المرأة وشأنها ...

فسددت إلى الجميلة نظرة فاترة ألقت الاضطراب في

« جهاز » عقلي ... وقالت في نبرة عذبة أتت على البقية الباقية مني ...

— ما أقسى حكمك ! ...

فقلت كمن يتقي سلاحا مصوبا :

— بالله لا تسلطي علينا الجمال يا سيدتي ... إنه في أيديكن كالمخالب في أيدي القطة ... تبرزنه وقت اللزوم ... من أجل هذا أكره المرأة ...

وكأن الشيخ لم يطق سكوتا ، فقال في صوت المتوسل :

— لا تكره المرأة يا سيدي العزيز ... إن المرأة الجميلة كالزهرة النضرة ... كل شيء فيها جميل ، حتى شوكها ... إن الجمال لا يتجزأ ... إنه الجمال وكفى ... إن الجمال هو فضيلة المرأة ... بل هو الفضيلة وكفى ...

فأجبت الشيخ في صوت المغلوب على أمره :

— لقد خنتني يا سيدي ... وفت في عضدي ، وخذلت جنسنا ، وظاهرت الجنس الذي يقال إنه لطيف ، وهو في

غير حاجة إلى دفاع ... إن المرأة لا تدافع ... إنها تهاجم وتصعق ... آه من الجمال ... المرأة الجميلة هي القوة وكفى ... هي الصاعقة وكفى ...

وأخرجت منديلي كأني أريد أن أجفف عرق الاندحار ... فضحكت الجميلة وقالت :

— لا يبدو عليك مطلقا أنك صعقت ...

— وماذا تريدين يا سيدتي أن يبدو علي ؟...

— لست أدري ... لكن ... ؟

— لا أكتمك يا سيدتي أن في رأسي « مانعة » للصواعق ... كتلك القطعة من الحديد التي توضع في رؤوس البيوت ... هو مبدأ قد رسخ في ذهني :

إن حريتي أثمن عندي من روحي ... وإن المرأة وحدها هي أخطر عدو يهدد هذه الحرية ... فالمرأة يا سيدتي هي السجان .. الدائم لنا نحن الرجال ... تتخبط بين جدران بطنها ونحن أجنة ... نطعم ما تريد هي أن تطعمنا إياه ...

فإذا خرجنا من بين تلك الجدران المظلمة إلى الحياة المضيئة الرحبة ، وقعنا بين سياج حجرها ، تغذى أفهامنا بما تريد هي أن تلقننا إياه ... فإذا اجتزنا بالكبر تلك السياج تلقتنا أغلال ذراعيها فطوقت أعناقنا حتى الممات ... فمتى الخلاص منها ؟ ... ومتى الحرية ؟ ...

فابتسمت المرأة ابتسامة لها فعل الكهرباء :

— ألم أقل لك ... إنك لم تصعق ! ...

فصاح بي الشيخ :

— سيدى العزيز ... سيدى العزيز ... أتوسل إليك في خضوع أن تخرج من رأسك تلك الحديدة ! ...

فتنهدت وقلت :

— وما حظك من أن تعرضنى للخطر؟... يا إلهى اشهد!... لقد اصطلحت علىّ الأسباب هذه الليلة لإضاعتى... إن « الحديدة » يا سيدى قد صهرت ... ومتى كانت صاعقة الجمال يردها حديد أو خشب ؟ ... إنى قد صعقت ... إنى

قد صعقت ... إنى قد صعقت ... أما تزال سيدتى مصرة على أن هذا لا يبدو علىّ ؟! ...

فأجابت الجميلة فى ضحكة رقيقة :

— داؤك غير خطير ...

وكان القطار قد مر ببحيرات زوريخ الرائعة فنظرنا كلنا إلى تلك الجبال الشاهقة الخضراء ، كأنها مردة عمالقة فى أبراد حضرمية ، يلعب تحتها الماء الأزرق الهادئ كأنه يداعب أقدامها العارية ... وغمرنا الشعر المحيط بنا فأنسانا أنفسنا ... فلم نفق إلا على حركة الغلام وهو يرفع عن مائدتنا الأطباق والأكواب ... فالتفتنا ، فإذا عربة الأكل قد خلت من الركاب ، ولم يبق غيرنا ، وقد مضت ساعة الشاى منذ وقت ليس بالقصير دون أن نمس مرُّها ... وبدأ السقاة والغلمان يهيئون الموائد تأهبا للعشاء ... فنهضت الجميلة فى الحال فى خفة العصفور إذ يقفز من غصن إلى غصن ... واستأذنت فى العودة إلى مقصورتها ، ووعدت باللقاء عند العشاء تلبية

لرجاء الشيخ ... وذهبت عنا كأنها الشمس التي غابت وقتئذ خلف الوديان ... فتركتنا في ظلامين ... ولبثت أنا والشيخ صامتين مطرقين ، كأننا نخشى الإفاقة من سحر تلك اللحظة ... غير أني تكلمت على الرغم مني في صوت ضعيف كأني أخاطب نفسي :

— دائي غير خطير ...

وسمع الشيخ مني وفطن لي ، فالتفت إلى قائلا :

— أوقعت ؟ ...

فخرج من فمي الجواب دون أن أشعر :

— نعم ...

وانتبهت لنفسي فرأيت الشيخ يحدق في وجهي ... فاستهولت الأمر ، ومرت في جسمي رعدة ، وخشيت على نفسي ... وإذا الشيخ يقول لي صوت هادئ مطمئن :

— اعتمد عليّ ! ...

— أعتمد عليك فيماذا ؟! ..

فنهض ومد إليّ يده وصافحني ضاغطا على يدي ، وهو يقول في صوت حار :

— إني أفهمك وكفى ... إلى الملتقى في العشاء ...

ومضى في حركته النشطة ، وأنا أنظر إليه ، ولا أدري ما أفعل ولا ما أقول ، حتى غادر عربة الأكل واختفى عن عيني ... وثبت إلى رشدي ورأيت نفسي وحيدا في المكان بين الطهاة والسقاة ، فانصرفت إلى مقصورتي وأنا شارد الفكر ضائع اللب ...

* * *

جلست في مقعدي صامتا دون أن ألقي نظرة على « موريس » ، ولا أذكر ماذا كان يصنع وقتئذ ، لعله كان يراجع أو يتظاهر بمراجعة فصله ... ورأيت نفسي في حاجة إلى أن أخفي عنه أمري ... فتناولت كتابي ، وفتحته حيثما اتفق ، ودسست وجهي فيه ، ومضت لحظة لم أع فيها ما حولي ، فقد غاصت نفسي في القرارة السحيقة من نفسي ، كما تغوص

القوقعة فى أعماق صدفتها ، وإذا بى أسمع همهمة ، كأن أحدا يغالب الضحك ولا يستطيع كتمانه ، فرفعت عينا حريصة مستطلعة خارج الكتاب ، فرأيت الخبيث « موريس » يهتز كالمرجل بالضحك المحبوس ... فقلت له فى هدوء مصطنع دون أن أبسم :

— أعط نفسك راحتها ، وأفرغ هذا الوعاء الممتلئ هذرا وسخفا ! ...

فما توانى ... وفتح عقيرته بقهقهة صريحة ، وهو يقول :

— شتان بين وجهك الذى ذهبت به ، ووجهك الذى تعود به الآن ! ...

فقلت فى فتور وبرود :

— ما الفرق ؟ ... أذهبت حليقا وعدت بلحية بيضاء ؟ ...

— بل ذهبت هادئ البال ... وعدت مسلوب البلبال ...

فلم أطق صبرا :

— ... كى ترضى وتطمئن ، هذا ما كنت تتمناه من صميم

فؤادك ... ما زلت بى حتى طرحتنى أرضا ... لكننى أقسم بشرفك ثلاثا ...

— كفى قسما بشرف ... أقسم بشرفك أنت مرة واحدة ! ...

ولم أر فائدة من الكلام مع « موريس » ، ولم أجد فى نفسى ميلا إلى الجدل والحديث ، فغادرت المكان وخرجت إلى الممر يشيعنى الفرنسى بضحكات مرحة ، وهو يفرك يديه سرورا وجذلا ، كأنما الحال والأعمال سائرة على خير ما يرام ... أو كأنما يرقص فى جيبه « شيك » سخى الأرقام ... وابتعدت عن مقصورتنا ... وأسندت جبينى إلى زجاج من نوافذ الممر ، وجعلت أفكر فيما حدث ... إنه الجنون ... أى مطمع لى فى هذه الراقصة الفاتنة ... إنها على مقدار من التواضع ونبل الخلق فيما أرى ... لكنها متى هبطت « باريس » أحاط بها الفنانون والظرفاء والأثرياء ... وبعد ... فماذا أريد منها على وجه التحقيق ؟ ... هذه مسألة

ينبغى أن ألقى عليها الضوء فى أنحاء نفسى ، وألا أتركها مبهمة غامضة ... ما حقيقة شعورى نحوها أولا ؟ ... كلا ... هذا سؤال يدل على الحمق ... إن كان الأمر متوقفا على الشعور ، فإنى الآن أحس أنى لا أرى فى الحياة عسلا ولا وهجا إلا فى عينى هذه المرأة ...

ترى ما مذهبها فى الرقص ؟ .. وبكم أبتاع ليلة ترقص لى فيها وحدى بين جدران أربعة ؟! ... إن المرأة سجاننا الدائم ... اللهم إنى مغفل ! ... اللهم إنى أقبل السجن مع هذه المرأة بين جدران لا تهدم وفى أغلال لا تحطم ! ... إن الحياة خارج مثل هذا السجن هى السجن ... لكن ... معذرة ... هذا كلام فتى فى العشرين ... وأنا اليوم لست فى العشرين ولا فى الثلاثين ... وليست هذه المرة الأولى التى ... آه للقلب ! .. إنه لا يعرف غير لغة واحدة ... إنه إذا استيقظ غنى عين الأنشودة بألفاظها وأنغامها ، غير حافل بصغر أو بكبر ، كأنه « أسطوانة » غناء ، إذا

مستها الإبرة صاحت بما كانت تصيح به فى كل حين ... وأنا الذى كان يحسب أن أسطوانة قلبه قد غيرت أنشودتها ... مستحيل ... إن الصوت قد يفعل فيه القدم فيضعف ويبهت ... ولكن الأغنية هى دائما الأغنية ...

كل ذلك صحيح ... ولكن هذا العقل الساكت أما ينبغى له أن يتكلم ؟! ... أيها الربان المحترم الذى يدير هذه السفينة الثملة ، ما بالك قد انزويت فى « قمرتك » ؟! ... كأنى بك تحتسى أنت أيضا كؤوسا من « الشمبانيا » تاركا السفين يلعب فى يد المقادير ... أريد منك الجواب عن سؤال واحد : ماذا تريد أو ماذا ينبغى لنا أن نريد من هذه الجميلة ... لست تدرى ؟ ... هذا لا يدخل فى دائرة عملك ؟ ... واعجباه ! ... إن العقل أيضا قد ثمل ... هنالك صوت داخلى مع ذلك يهتف بى ألا أحاول شيئا وألا أطمع فى شىء ، وأن أمكث فى مكانى لا أذهب إلى العشاء ... نعم ... لا يجب أن أذهب لمقابلتها فى العشاء ، إذ ... ما الفائدة ...

ودوى فى العربات رنين الصينية النحاسية ، فلم أتحرك من موقفى ، على أن رفضى رؤيتها على هذه الصورة أمر لم يتم لى إلا بعد حركة قمع دامية ، قمت بها داخل النفس المتمردة ... لقد أقنعت نفسى أن الانتصار الحقيقى هو دائما فى كلمة « لا » ...

لقد انتصرت إذ لم أذهب حيث كانت تنتظرنى... لكن عفوا... من قال إنها تنتظر؟... ما هذه الألفاظ التى نسبغها أحيانا على مواقف عادية هى غاية فى البساطة؟... وما هذا الانتصار المزعوم؟... وعلى من تراه وقع ؟... عليها هى؟... أغلب ظنى أنها لا تشعر به ولا بى... أما إن كان على نفسى فنعم... وانتصارى على نفسى ما قيمته على الأقل فيما نحن فيه الآن؟!... آه من هذا الانتصار فى الهزيمة!... هذا الذى لا يعرف غيره الأدباء المساكين ! ... وطفقت أنسج على هذا المنوال خيوطا واهية من الخواطر ، لا نفع فيها إلا إضاعة الموعد على ... ومضت ساعة فيما

يخيل إلىّ وأنا جامد فى موضعى ، و لم أفق إلا على صوت خلفى يهتف باسمى ، فالتفت فإذا الشيخ يشتد نحوى صائحا بى :

— لقد قلبت القطار ...

— قلبت القطار ؟ ... هذا القطار الذى نحن فيه ؟ ...

— بحثا عنك ... أين كنت ؟ ... ولماذا لم تظهر ساعة العشاء ؟ ...

— آه ... إنى آسف حقا كل الأسف إذ حرمت نفسى ... لكن ...

— لا بأس ... إنى أفهمك ...

قالها الشيخ فى نبرة الواثق وصوت المجرب المعانى ...

وخامرتنى الرغبة فى أن أستزيده أيضاحا ، وأن أعرف على أى وجه قد فهمنى ... غير أنه عاجلنى قائلا :

— إن غيبتك قد أقنعت الجميلة بأن داءك على شىء من الخطر ...

ـــ داقٌ ...

ورفعت يدى أجس صدرى وقلبى وكبدى ... وقد كاد يدخلنى اليقين أن قد نزل بى مرض حقيقى ... ومضى الشيخ يقول وهو يهش لى :

ـــ اطمئن ... لقد استنزلنا عليك عطفها ...

ـــ ماذا أسمع منك ؟ ... مد الله فى عمرك وأطال لنا بقاءك ولا عدمناك نصيرا للبائسين اليائسين ... ولكن بحق شرفك عندى إلا ما أخبرتنى وزدتنى ... متى كان ذلك ؟ ... وكيف ؟ ... متعك الله بالصحة والشباب والنشاط ...

وأخذتنى نوبة عصبية من الفرح ، فاستنزلت على الشيخ كل ما فى السماوات من خيرات ، وما لى الجعبة من دعوات ...

فاقترب ... منى باسما ... وهمس فى أذنى وهو يغمز بعينه :

ـــ هى لك ...

فتجهم فى الحال وجهى ، ورميت الرجل بنظرة قاسية :

ـــ لا تمزح يا شيخ ...

فابتسم الرجل وقال :

ـــ إنك لا تصدق ... ويحق لك ألا تصدق ... فهذه المرأة على جانب كبير من الخلق والثقافة والذكاء ... وليس ما بها خفة ، ولا تبذل ولا حاجة إلى مال ، وإنما هو حب استطلاع فيما أرى ، وقد خدمك الحظ الليلة ، وربما كان لشخصى الضعيف أثر فى تمهيد الطريق وفرشه بتلك الزهور التى ابيض شعرنا هـذا فى اصطناعها لمثل هذه اللحظات .. لقد تكلمنا عنك طـول الوقت ... وعلمت أنها فى « باريس » ستنزل فى فندق « إدوارد السابع » وأنه قد حجز لها فيه حجرتان وحمام ... وقد استكثرت أنا عليها الحجرتين ، واستأذنتها فى أن تنزل لك عن حجرة ...

فما تمالكت أن صحت وأنا أهتز كالقصبة من التأثـر والاضطراب ، والفرح والإعجاب :

ـــ أقسم لك بشرفك يا سيدى أنك أبرع من رأيت على وجه البسيطة ، بل أقسم بشرفك ثلاثا أنك ملاك أرسل إلـىّ

من السماء ... وهل من الضرورى أن أرى لك أجنحة حتى أصدق أنك ملك من ملائكة السماء ! ...

فمضى الشيخ يقول دون أن يحفل بقسمى وحماستى :

ــ ولقد قبلت آخر الأمر بعد إلحاح ... فهاأنتذا معها منذ الغد فى جناح من الفندق ، لا يفصل بينكما ...

فأسرعت وقاطعته ، وقد بدا لى ما أزعجنى :

ــ لكن أصغ إلىّ يا سيدى ... أتعرف «كليوباترا» وذلك «العبد» الذى أعطته ليلة من لياليها ، وفى الصباح قتلته ؟ ... أتعرف «سميراميس» وذلك «الأمير» الذى منحته نفسها فى الليل ، وعند الفجر أسلمته إلى الجلاد ؟! ... أهى تريد بى هذا المصير ؟ ...

فقال الرجل :

ــ دعنا من الجلاد والعبد وهذا الكلام الذى تملأون به القصص ... إن كل ما أعرف الآن أن هذه الجميلة قد أمست طوع بنانك ! ...

ــ بنانى ... اللهم لطفا بعقلى ... اللهم ...

وانحبس الكلام فى حلقى ، ولم أدر ما أفعل ، فارتميت على حذاء الشيخ ، فأسرع وأمسك بذراعى صائحا :

ــ ماذا تصنع ؟ ...

ــ أقبل قدميك ...

هذا تفعله إذا كنت تبصر على رأسى تاجا من الورق المقوى ... أو كنت تحسبنى ملكا من ملوك المسارح ... انهض يا ... «عدو المرأة» ... حسبى اغتباطا أنى أصلحت بينك وبينها ، وما تركتك حتى يسرت لك الأمور ، ونظمت لك الشؤون .. وإن طلبت معونتى بعد ذلك فى أى وقت ، فإنك تجدنى فى «جراند أوتيل» بميدان الأوبرا ، حيث يحجزون لى دائما حجرتى ، إذ أقيم فى «باريس» ... والآن وقد وضعت يدك فى يد امرأة جميلة ، فإنى أستأذنك فى الانصراف .. وليلة هانئة .. وإلى اللقاء !! ...

وتركنى الرجل ومضى ... وأنا كمن قد ذهب لبه وغاب وعيه ... لا أعرف بعد إن كنت فى قطار يجرى بى على الأرض ، أو فى منطاد يرقى بى إلى السماء ...

٢

كان كل همى — وقد دخل القطار « باريس » — أن أدبر طريقة الهرب من « موريس » ... لكن ... كيف الهرب وحقائبى بين حقائبه ؟! ... وهو لا ريب شاعر بى إذا أبديت حركة .. فلنكن شرفاء ... ولنخبره من مبدأ الأمر بما خامر النفس ، وانطوى عليه العزم ... وأردت أن أفاتحه .. فوجدته فى النافذة مستقبلا « باريس » كمن يلقى حبيبا بعد طول فراق ... وقد أنساه الشوق والحنين نفسه ومن حوله ، فجعل يصفر بفمه أغنية الراقصة « مستنجيت » .

« باريس غادة شقراء ..

باريس ملكة الدنيا ! ... »

فانتهزت الفرصة ، وغافلته مادا يدى إلى حقائبى . أستخلصها من بين الأمتعة وأخرجها إلى الممر ... وأضعها بعيدا عن المقصورة ، قريبا من باب العربة .. وفرغت من ذلك كله ، دون أن يتنبه إلى ... ففرحت ، وحمدت الله ... ولم يبق إلا أن أضع قبعتى وأحمل معطفى وعصاى ... ففعلت .. وما كدت أهم بمغادرة المكان ، حتى التفت إلى هذا اللعين قائلا :

— ماذا تصنع ؟ ...

فانخلع قلبى ... وسقط فى يدى ... ولم أر بدا من الكلام .. فقلت :

— أهرب منك ...

فقال فى نبرة ساخرة :

— وهل نجحت ؟ ...

فملأتنى هذه العبارة غيظا ، وذكرت كل ذلك الجهد الذى ذهب سدى ... غير أنى تمسكت بالصبر واصطنعت الحلم

... وقلت له :

— أصغ إليّ أيها الصديق ! ...

فقال باسما :

— هأنذا مصغ ...

— إنك تتمنى لي الخير ؟ ...

— طبعا ...

— والهناء ؟ ...

— طبعا ... طبعا ...

— هنالك طريقة واحدة أنال بها ما تتمنى ...

— ما هي ؟ ..

— هي أن تعود فتدير وجهك نحو النافذة ، وتصفر بفمك أغنية « مستنجيت » وتجعل كأنك لم تر شيئا ولم تتنبه إلى شيء ! ...

— وعنوانك ؟ ...

— يحفظ بشباك البوستة العمومية ...

فلم يتردد .. وأسرع فاستقبل النافذة ... وهو يغمز لي بطرف عينه أن :

« رح ... لست أرى شيئا ، ولا أتنبه إلى شيء ! ... » .

وطفق يصفر :

« بـاريس غـادة شقـراء
باريس ملكـة الدنيـا ! ...
عينـاك تبسم دائمـا ...
كل مـــن عـــرفك
وتمل مـــن لطـــفك
يـــذهب عـــنك
ليعـود إليـك دائمـا ... »

٣

سرت إلى جانب الجميلة على إفريز المحطة ، فى طريقنا إلى باب الخروج ، وقد تغيرت فى عينى مظاهر الأشياء ، وقد أمسى لكل شيء معنى آخر فوق معناه ... ومررنا بالقطار الذى كنا فيه ، وهو واقف ، يتصاعد من عجلاته البخار ، ويقطر من جوانبه الماء والغبار ... فقلت :

ــ هذا « البراق » الذى ركبناه ، واقف يلهث تعبا ويتصبب عرقا ! ...

فقالت الجميلة :

ــ منذا يقول إن مثل هذا الشيء القبيح قد استطاع أن

يقودنا خلال أبهى المناظر ... وأن يعرض على أبصارنا أجمل حلى الطبيعة ، وأبدع كنوز الخليقة ! ...

فقلت لها :

ــ إنه مثل الشاعر ، بل مثل الفنان ... زرى الهيئة أحيانا ، ولكنه هو المنوط بقيادة البشر خلال مروج الحسن وفراديس الجمال !... من أجل ذلك يا سيدتى ... لا أنصح كثيرا للناس أن يتأملوا الفنان من الخارج كما نتأمل نحن الآن هذا القطار ... فإنهم لن يروا عليه سوى آثار التعب والغبار ! ...

فالتفتت الجميلة فجأة ، ونظرت إلى وجهى مليا ... وقالت باسمة :

ــ نعم ... أرى ذقنك لم تحلق كما ينبغى ! ...

فخجلت ... وأردت أن أبدى السبب لو أن هنالك سببا ... لكننى رأيت مندوب فندق « إدوارد السابع » يقبل نحونا ويرفع قبعته ذات الرقعة النحاسية .. وقد بدا لى أنه

عرف نزيلته المعتادة ... وعرف حقائبها مع الحمالين ، فمشى فى أثرهم ... وخامرنى أنا قلق نغص علىّ ما أنا فيه ... وجعلت أفكر فى أمر هذا الفندق الكبير :

فندق « إدوارد السابع » ببابه الدائر كأنه ساقية آدمية .... لا ينقطع له دوران ... يقذف إلى بهوه القادمين ، ويلفظ إلى إفريزه الراحلين ، وقد وقف عليه فى ملابس الـ « جروم » غلامان ضخما الجسم أحمرا الوجه ، كأنهما ثوران ، يحملان المظلات ، ويهرعان لا ستقبال السيارات ... كلا ... لن يغمض لى جفن فى مثل هذا الفندق ... ولقد كنت دبرت من قبل أمر مسكنى الذى يستطيع مثلى أن يعيش فيه ... فنظرت إلى الجميلة بجانبى ...

ـــ أين تنزل ؟ ...

ـــ يدهشنى أنك لا تعرف ...

ـــ « إدوارد السابع » ؟؟ ... إنى لا أحب النزول فى فنادق الملوك ...

فالتفت إلىّ مازحة باسمة :

ـــ شيوعى ؟؟ ...

ـــ لست كذلك بالضبط ... ولكنى رجل تعوزه الشجاعة أن يحيا طويلا فى غمار أولئك الذين خلقوا ليرتدوا ثياب السهرة فى كل ليلة ، ويقفوا على مائدة « الروليت » ، ويغرقوا فى مقاعد بهو الفندق الفخم يدخنون « الهافانا » ، ويتحدثون عن سباق « لونشان » ... لقد غلطت يا سيدتى مرة فى فندق « أوروبا » العظيم ، فهربت فى اليوم التالى ... وجعلت أبحث عن بغيتى حتى وجدتها فى فندق « شتين » المطل على النهر ، المطلى باللون الأحمر القانى ... لون الطاحونة الحمراء ، التى كانت يوما صدر « مونمارتر » الزاخر بعاطر الهواء ... آه ! ... لكم وقفت الليالى تحت تلك الطاحونة الحمراء ... أتأمل مراوحها المضيئة وهى تدور ... فما أتمالك أن أصيح :

ـــ تلك رئتاك يا « مونمارتر » ! ... إنك لا تتنفسين إلا ليلا ...

وما أشعر عندئذ إلا وأحد الحمالين كاد يصدمنى بعربة عليها أثقال يدفعها بيده ... فجذبتنى الجميلة من ذراعى جذبة أنقذتنى ، وقالت فى خبث ظريف :

ــ كاد الشعر يضيعك ... فأنقذتك امرأة ! ...

ــ إنى مدين لك بحياتى ! ...

قلتها فى بساطة غير المؤمن بما يقول ... وفى ابتسامة المجامل ، وفى سرعة من لم يجد غير ذلك ردا ... واقتربنا من الباب الكبير ، وقد اصطفت السيارات ، فالتفتت إلىّ ثانيا قائلة :

ــ إذن لن تأتى معى إلى « إدوارد السابع » ؟ ...

ــ ومن قال إنك ستذهبين إلى « إدوارد السابع » ؟ ...

فنظرت إلى بعينين واسعتين من العجب :

ــ ماذا تعنى ؟ ...

ــ أعنى أن أهل الفن أمثالنا لا يحسن بهم إذا هبطوا « باريس » أن يحيوا حياة تجار الحديد وأصحاب مصانع

الكبريت ! ... إن الفنادق ليست لنا بمنازل ... إنى أعرف ذوقك ... أنت لا غنى لك عن صور جميلة ، « وكروكى » بارعة ، و « اسكيس » غريبة توين تخدعك ... أنت لا غنى لك عن مكان رحب تطلقين فيه كل صباح خطواتك الصادحة ... أنت لا غنى لك عن ضوء غزير ، يشع من جدران بلورية ... أنت لا غنى لك عن أزهار وأطيار ، و ...

ــ ما هذا الوحى الذى هبط عليك فى المحطة ! ...

ــ إنه يهبط علىّ حيثما أنت معى ... وهل أنت إلا هو ! ...

وأسرعت فأشرت إلى سيارة « تاكسى » انطلقت بنا فى طرفة عين تجوب شوارع « باريس » ... وقد تملك كلانا وجوم الحنين إلى هذه المدينة العزيزة ، فما انتبهنا إلا على صوت السائق يستدير إلينا سائلا عن الجهة التى إليها نقصد ... فبادرت مجيبا :

ــ « مونبارباس » ... شارع « دى لامبر » ...

فصاحت بى الجميلة :

ـــ ما هذا ؟ ...

ـــ هذا يا سيدتى المكان الذى ينبغى أن توضعى فيه داخل إطار فوق « شفاليه » كما توضع صور مثيلاتك من الحسان الخالدات ! ...

ـــ إنك تتصرف فى حياتى على نحو غريب ! ...

ـــ اسمحى أن يكون لى هذا الشرف مرة فى حياتى ...

ومر برأسى تلك اللحظة خاطر ، فنظرت من نافذة السيارة الخلفية الصغيرة ، فلم أجد أحدا يتبع أثرى ... فعلمت أن الماكر « موريس » قد ارعوى وانصرف إلى شأنه ...

والتفت إلى الجميلة فأبصرت التردد والتجهم قد بدءا يظهران فى شبه خطوط رفيعة فوق جبينها الفضى ... فرأيت أن أشغلها بالحديث قبل أن ينبت فى رأسها عزم يسيئنى ... وكنا قد مررنا بـ « اللوفر » ونحن نعبر « السين » إلى الضفة اليسرى على قنطرة « بون رويال » فأشرت إليه وقلت لها :

ـــ ههنا امرأة لها مثل عينيك ...

فألقت إلىّ نظرة تنم عن فكر شارد ، ولكن فيها مع ذلك معنى الاستفهام ... فمضيت فى الكلام :

ـــ هى « لوكريزيا كريفيللى » ...

فأقبلت علىّ فى انتباه ، وقد انفرجت أساريرها ، وتفتح ثغرها تفتح الزهرة بالابتسام ... وقالت :

ـــ أهى لم تزل على الحائط الأيسر فى القاعة المستطيلة ! ...

ـــ بارك الله فى ذاكرتك ! ... أعترف لك فى خجل أن مسألة الحيطان هذه أكبر من أن يسعها رأسى الضعيف ! ...

ـــ لماذا ؟ ... إن صور « ليوناردو » كلها فيما أظن على الحائط الأيسر ! ... تذكر معى : « إله الخمر » والقديس « يوحنا » و « الجوكندا » و ...

وجعلت تستعرض تلك اللوحات ، وأنا مشغول منهوب ... أرنو إلى حركة شفتيها وهى تلفظ أسماءها فى نطق إيطالى لذيذ ... وقد فطنت لنفسى حتى لا تفاجئ هذا الرنو الذى قد يكشف عن أشياء يخفيها قناع من البساطة والمرح ...

ودخلت السيارة شارع « دى لامير » ووقفت على باب كبير ، فانتبهت الجميلة ونظرت إلىّ ، فلم أبادلها النظر ، وأسرعت بفتح باب العربة ، ونزلت ومددت يدى إلى يدها أعينها على النزول ... ثم دفعت إلى السائق أجره ..

وقرعت جرس المنزل ، فخرجت حارسة الباب ... فما رأتنى حتى عرفتنى وحيتنى أحسن تحية ... والتفتت إلى الجميلة وانحنت لها وهى تهمس : « مدام » ... ثم عادت موجهة إلىّ الكلام قائلة : إنها قد تسلمت برقيتى ، وأعدت المسكن خير إعداد ... ووضعت النار فى المدفأة الكبيرة ...

وأشارت إلينا أن : تقدما ... وبادرت هى إلى الأمتعة ، فأنزلتها إلى الأرض ، وحملت منها ما استطاعت حمله ، وتبعتنا به ... وسرت أنا بالجميلة إلى المصعد ، وارتفعنا إلى الطابق الخامس ... ثم مشينا إلى باب على اليمين ، وأخرجت من جيبى مفتاحا صغيرا ففتحته به ... وأشرت إلى الجميلة أن : تفضلى ... فدخلت فى شبه دهليز فى صدره ستارة ، وفى

جانبيه أبواب صغيرة ... فنظرت مستطلعة من خلال الأبواب المفتوحة ، فإذا على اليسار قاعة للأكل بسيطة صغيرة منخفضة السقف .. وإذا على اليمين مطبخ صغير مجهز بالآنية النظيفة اللامعة ، وأدوات الطهى والشواء فوق فرن صغير توقد ناره من غاز يجرى فى أنابيب ... ثم سلم صغير حلزونى الشكل ، يوصل إلى شبه طابق آخر فيه حجرة النوم والحمام ... واقتحمت الستارة ... فإذا هى فى قاعة هائلة طولها طول المسكن كله ، وارتفاعها ارتفاعه ... جدارها الطويل من البللور ترى منه الشمس إذا طلعت ، وبرج إيفل إذا صفت السماء ... وقد انتحى الموقد الكبير ركنا مهملا من أركان تلك القاعة ، يكتنز النار فى قلبه كأنه عاشق مهجور ، وفى ركن آخر مكتب كبير عليه كتب وأوراق ، وحوله فرش وثيرة فوق سجاجيد ، ألقى عليها جلد دب أبيض ووسائد منثورة .. وفى الوسط قام « شفاليه » من خشب الجوز يحمل « لوحة » زيتية من عمل المصور النرويجى « أوتو » الذى كان يقطن هذا

المكان ، تمثل عروس الرقص « تربسيكور » تمثيلا غريبا لا علاقة له قط بلوحة « شوتزنبرجر » الشهيرة المعروضة فى متحف « اللوكسمبورج » ...

ألقت الجميلة نظرها على هذا كله ، وهمست كالمخاطبة لنفسها :

— « ستوديو » ؟! ..

— نعم ... ههنا ينبغى أن تعيش ...

ودخلت حارسة الباب بالأمتعة ، ووضعتها فى الدهليز ، ثم سألتنا عما إذا كنا نطلب شيئا ، فأجبتها بالسلب ، فانصرفت وأغلقت خلفها الباب وأشرت أنا إلى حجرة النوم ونوافذها الصغيرة التى تشرف على القاعة ، وقلت للفاتنة :

— تلك حجرتك ... اسمحى لى أن أصعد أمتعتك إليها ...

وتركتها فى الحال ... وصعدت السلم الحلزونى حاملا حقيبتها .. ثم عدت إلى جانبها ، وقد دنت من أصص أزهار « الميموزا » و « الهورتنسيا » على الجدار الزجاجى ، وابتسمت لألوانها ، ثم التفتت إلىّ :

— صدقت .. هنا كل شيء جميل ... لكن ...

ورفعت عينيها فى شيء من التردد والحيرة إلى حجرة النوم الوحيدة :

— لا أستطيع مع الأسف أن أقبل ضيافتك ... لقد كنت أحسب أن لديك ...

فأدركت مرمى قولها ، وسارعت قائلا :

— اطمئنى ! ... هذه الحجرة لك وحدك ، لا شريك لك فيها ...

— وأنت ؟ ...

— إنى سأرقد على هذا الفراش فى هذه القاعة ...

— إلى الحق أن أغتصب حجرة نومك وألقى الفوضى فى نظام حياتك ؟! ...

— إن الفوضى هى نفسها نظام حياتى ... وأنت التى لها الحق أن تغتصب قلبى ... أفلا يكون لها الحق أن تغتصب حجرتى ؟! ..

فضحكت وقالت :

ـــ أصبت ، هذا منطق لا بأس به ..

واستأذنت فى الذهاب إلى حجرتها لبعض شأنها ... ولبثت أنا فى مكانى قليلا ... وبدا لى أن أفرغ أنا أيضا حقائبى ... وأن أهيئ أمرى فى تلك القاعة ...

ومضت ساعة وكلانا غارق فى شؤونه التافهة ... وقد أخرجت ملابسى ودسستها فى خزانة بالحائط معدة لحفظ أصباغ التصوير وريشه ... وألقيت بكتبى التى ابتعتها حديثا على « رف » فوق الفراش .. ورميت على رأس الدب خفى الأصفر الذى كنت اشتريته من خان الخليلى بالقاهرة ... وقذفت على الوسائد ذات الرسوم الحديثة بعباءتى « الألاجا » الزرقاء ... ووضعت « الجراموفون » الذى لا يفارقنى فوق مائدة صغيرة من موائد المعمل ... ثم خلعت نعلى وبعض ما علىّ من ثياب ، وذهبت إلى المطبخ ، فغسلت وجهى ورأسى فيه إذ لم أشأ استعمال حمامها ...

وعدت فجعلت « البلغة » فى قدمى ، وارتديت العباءة ... ووخزت بالإبرة صدر « الجرامفون » فانطلقت « رقصة الأزهار » للموسيقى « تشايكوفسكى » تتاوج أنغامها فى المكان ، وتحيط بصورة « تربسيكور » وتكاد تخرجها من الإطار ، راقصة رقصتها الإلهية ، وكأنى بالأصص تهتز فوق الجدار ، وكأنى بـ « الميموزا » تراقص « الهورتنسيا » ... وإذا الجميلة تبدو فى نافذة حجرتها المطلة على القاعة وهى فى « روب دى شامبر » من الحرير ، قرمزى اللون موشى بخيوط من ذهب فى لون عينيها ... وإذا هى تتمايل لوقع الموسيقى فى لطف ورقة ، فخيل إلىّ أنها فراشة جميلة فرت من الجنة أو من حديقة علوية لا وجود لها إلا فى مملكة الخيال ، أو أنها هى « تربسيكور » نفسها انطلقت من الإطار ووقفت بالنافذة ، فالتفت إلى « الشفاليه » فإذا الصورة أقل شأنا منها فى إبراز روح الرقص ... وإذا هذا التمايل الخفيف اللطيف ، كأنه تمايل السنبلة أو الزهرة تحت النسيم ، إنما هو شىء لا يقع إلا من

« عروس الرقص » نفسها ! ... فوجمت لحظة ... ورنوت إليها مأخوذا ... ثم لم أتمالك أن صحت بها :

— تربسيكور ! ...

فلم تجبنى ... ولم يبد عليها أنها فطنت لصيحتى ، حتى سكت الجراموفون ... فانتبهت لنفسها ولى ... وهمست :

— حقيقة ، هذا « الباليه » من أجمل ما كتب « تشايكوفسكى » ! ...

واختفت من النافذة ... ثم لم ألبث أن أريت يدها الصغيرة البيضاء تزيح الستار قليلا ... وإذا هى فى القاعة تقبل علىّ فى خطى رشيقة ... وما وقفت عيناها على هيئتى بحباءتى حتى اتسعت حدقتاها ... وقالت دهشة :

— عجبا ! ... كأنى فى حضرة « هرون الرشيد » ! ...

فأجبتها باسما :

— أتأذنين ! « هرون الرشيد » أن يلثم يدك ؟ ...

فمدت إلى يدها فوضعتها على شفتى فى خشوع ... ثم أجلستها على مقعد وثير فى صدر المكان ... وجلست بين يديها على وسادة فوق الأرض جلسة تشبه الركوع ... ورفعت عينى إلى هذا التكوين البديع ... ولم أجد ما أقول ولا ما أصنع ... وهل نقول شيئا أو نصنع شيئا إذ نتأمل آيات « اللوفر » وروائع « السكستين » ! ...

— لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟ ...

— لست أدرى ...

والواقع أنى لست أدرى ... أتراها أبصرت فى مرآة عينى أشياء خفية لم تطف بعد على وجه نفسى الواعية ؟ ... إنى حتى الساعة لا أعترف فى دخيلة قلبى أن للحب شأنا فيما نحن فيه ... فهى ولا ريب لم يكن ينقصها أن تلقى فى حياتها مثلى حتى تعرف ما هو الحب ... وأنا لا حاجة بى إلى التجرع من كأسه مرة أخرى ... فليكن لقاؤنا إذن هادئا صافيا جميلا ... فاويل لمن يقع منا الآن فى الحب !

والواقع أنى لست أدرى ... أتراها أبصرت فى مرآه عينى أنى لست أدرى ... أتراها أبصرت فى مرآة عينى أشياء خفية لم تطف بعد على وجه نفسى الواعية ؟ ... إنى حتى الساعة لا أعترف فى دخيلة قلبى أن للحب شأنا فيما نحن فيه ... فهى ولا ريب لم يكن ينقصها أن تلقى فى حياتها مثلى حتى تعرف ما هو الحب ... وأنا لا حاجة بى إلى التجرع من كأسه مرة أخرى ... فليكن لقاؤنا إذن هادئا صافيا جميلا ... فالويل لمن يقع منا الآن فى الحب ! ...

وأرادت أن تقطع الصمت ، فمالت بجسمها ومدت يدها تطلب كتابا أبصرته فوق المكتب ... فدنا رأسها منى ، وقد انحدرت خصلة من الشعر فوق عينيها ، فشممت عطر « الأوبيجان » فى هذا الرأس الجميل أحسن ما يكون هذا العطر ، وكأنه مزج بأريجها هى ... فأحسست شيئا يصعد إلى رأسى الهادئ ويلقى فيه جمرة ... ولعلها رأت احمرار وجهى وجمود موقفى ... فقالت باسمة :

ـــ فيك شىء الساعة يشبه الفتى الذى لم يبلغ العشرين ! ...

فانتبهت لعبارتها وقلت على الفور كالمخاطب لنفسى :

ـــ أرأيت ذلك ؟! ...

فلم تجب ... وسددت إلىّ نظرة رائشة بأهداب من حرير :

ـــ هل أنت أحببتنى ! ...

فأسرعت كالمرتاع :

ـــ لا تقولى ذلك ! ...

فضحكت لروعى ضحكة رقيقة ، وقالت :

ـــ إنك تخشى الحب كمن يخشى الموت ! ...

ـــ نعم ...

قلتها فى صوت خافت وأنا مطرق ... ولم أزد ...

ومضت تقول دون أن ترفع نظرتها المصوبة ، وقد اتخذ صوتها على عذوبته نبرة أخافتنى :

— عرفت ذلك منك منذ النظرة الأولى ... من أجل هذا ...

وسكتت فى الحال ... كأنما كادت تنزلق على شفا غلطة ... ولم تمنحني وقتا أسألها فيه ... ونهضت وهى تنظر إلى ساعة فى معصمها ... ثم قالت :

— ألا نخرج ؟ ....

— نعم ...

ولم أتحرك من مكانى ... ولم أنتبه إلى الكلمة وهى تخرج من فمى ... ولم أفطن إلى عبارتها الأخيرة ... ولم أحس ذهابها إلى حجرة النوم ، وعودتها بملابس الخروج بعد زمن لا أستطيع تقديره ... ولكنى فطنت هذه المرة إلى قولها فى صيحة دهشة :

— عجبا ! ... ألم تتحرك ؟ ... ماذا بك ؟ ...

فرفعت رأسى ، ونظرت حولى وقمت للفور أقول فى شبه فزع :

— أنت ذاهبة ؟ ...

فحملقت فى وجهى ... فتذكرت ... وأسرعت فخلعت عباءتى ، وارتديت سترتى ، وتناولت عصاى ، وأنا أقول :

— نعم ... فلنخرج للعشاء ... أين ؟ ...

— عند « الأب لويس » فليس له فى باريس نظير فى شى الدجاج ! ...

* * *

جلسنا فى ذلك المطعم إلى خوان بالقرب من النار المستعرة فى شبه موقد بالجدار ، نصبت فيه « أسياخ » طويلة رفيعة ، قد رشق بها دجاج شهى ، تلحسه عن بعد أطراف ألسنة من اللهب حمراء ، وقد جاءنا الغلام بورقة « النبيذ البورجونى » فنظرت فيها « ناتالى » وقالت :

— « شابلى » .

— زجاجة « شابلى » ! ...

قالها الغلام وهو ينظر إلىّ ... فقلت دون وعى :

— نعم ... وأنا « بومار » .

— زجاجة « بومار » !

— نعم ... نعم .

فصاحت الجميلة :

— زجاجتان ؟ ... هذا كثيرا ... إنى لا أريد أن يذهب لب مولاى « هارون الرشيد » .

فقلت فى شيء من المرارة ، وكأنى أخاطب نفسى :

— لقد ذهب لب مولاك « هارون الرشيد » وانتهى الأمر ! ...

فضحكت ضحكة رقيقة ونهضت قائلة إنها تريد مكان « التواليت » وتركتنى مطرقا غارقا فى جو مبهم من الانقباض ... وعادت بعد برهة إلى جانبى دون أن أشعر بها ... فرفعت رأسى إليها ، فوجدتها تتأمل وجهها فى مرآة صغيرة بين أناملها ...فجعلت أتأمله أنا أيضا ، وجعلت عينى تنتقل من جبينها إلى أنفها ، إلى شفتيها ، إلى خديها ، إلى نحرها ... وقد غمر نفسى خوف وكآبة ... وأدركت لأول مرة الوزن

الحقيقى لتلك الكلمة التى قلناها فى خفة وبساطة ، أنا وموريس : « الجمال المخيف » ... وأقبل علينا الغلام مسرعا يعلن أن فى التليفون من يطلب « السيدة » ... وأشار إلى « ناتالى » فنهضت على عجل ، واستأذنتنى بنظرة ، ومضت ... ففهمت أن ذهابها فى المرة الأولى لم يكن للزينة وحدها ... وعادت بعد قليل وجلست دون أن تلفظ حرفا .. وجاء النبيذ المعتق فى زجاجتين يعلوهما التراب والعنكبوت ... وسكب الغلام فى الأكواب ... ورفعت « ناتالى » كأسها إلى شفتيها الرطبتين وهى تقول فى صوت كالهمس :

— فى صحة مولاى ! ...

— فى صحة جاريتنا !...

قلتها دون أن ضحك ، ودون أن أبسم ، وفى شيء من الصرامة وسوء الخلق ... وأردت أن أرفع الكوب إلى فمى فاهتز فى يدى اهتزازا كاد يريق ما فيه على غطاء الخوان الجميل ... ونظرت « ناتالى » إلى يدى المرتجفة ، وإلى

جهدى فى حمل الكأس المتلاعبة ، وإلى يأسى ووضعى الكوب فى مكانه من المائدة دون أن أشرب شيئا ... فقالت فى نبرة غريبة :

ــ الآن فلتسمنى ما شئت ! ...

* * *

ذهبنا بعد العشاء إلى حانة « الأرنب الخفيف » حيث سمعنا أغانى « باريس » القديمة ، وأقول « سمعنا » من قبيل التجاوز ... فأنا لم أسمع شيئا ، ولم أع شيئا ... وعدنا فى منتصف الليل ، أو بعده بقليل أو كثير ... لا أدرى ... ودخلنا « الاستديو » ووقفت عند الستار الموصل إلى القاعة الكبرى ... ومددت يدى إلى « ناتالى » مشيرا بالتحية .

ــ نوما هانئا يا سيدتى ؟ ...

وتركتها تصعد إلى حجرة النوم ... وذهبت أنا إلى الفراش الممدود بقرب المكتب ... فخلعت ملابسى على عجل ... وأطفأت النور ، وارتميت بين الوسائد أطلب النعاس

... ولكن نور حجرتها كان ينفذ إلى من نافذتها المطلة على قاعتى ... فلم يغمض لى جفن حتى أطفأت هى نورها ... وشمل الظلام المكان ، فحسبت أنى عندئذ سأنام ... ولكن النوم امتنع على ... وجعلت أتقلب الساعات يمينا وشمالا فى طلب إغفاءة لا تأتى ... إلى أن وثقت من أن النوم الليلة شيء بعيد المنال ... فقمت وأضأت القاعة ، وجلست إلى المكتب أقرأ كتابا ... وقرأت بالفعل سطرين أو ثلاثة ، ثم وضعت رأسى بين كفىّ ولبثت على هذه الحال حتى طلع النهار ، وسمعت صوت سيارات « الأتوبيس » الأولى تنطلق كالفرحة بالصباح الباكر فى « بولفار رسباى » فنهضت من فورى ... وارتديت ملابس الخروج فى غير جلبة ولا ضوضاء ، حتى لا أوقظها ... وقبل أن أغادر المكان ذهبت إلى المكتب ... وتركت عليه هذه الكلمة :

ــ سيدتى :

« لم يبق أمامى غير الفرار » ؟

٤

انطلقت من ساعتي إلى فندق « جراند أوتيل » بميدان الأوبرا ... وسألت عن الشيخ فقيل لى إنه قد استيقظ مبكرا كعادته ... وأنه الآن يتناول طعام الإفطار فى حجرته ... فبعثت إليه ببطاقتى ، فأذن لى فى الدخول عليه من الفور ... و لم يكد يرانى حتى صاح بى :

ـــ أيها الرجل السعيد ! ... ما كنت أتوقع رؤيتك ها هنا بهذه السرعة ! ... أين الجميلة التى وضعت يدك فى يدها البارحة ؟ ...

ـــ قد طلقتها ...

فحملق فى وجهى كمن ظن بى مسا :

ـــ أنت ؟! ...

فنظرت إليه و لم أتكلم ... فمضى متعجبا :

ـــ أنت فعلت هذا ؟! ...

فقلت وعيناى إلى الأرض كمن اقترف إثما :

ـــ نعم ...

فقال الشيخ وكأنما يخاطب نفسه :

ـــ أنت الذى أراد أمس أن يقبل قدمى من أجلها !! ...

فتشجعت ورفعت رأسى قائلا له :

ـــ اسمع يا سيدى الجليل ...

ـــ لا أريد أن أسمع فى أمرك شيئا ...

وجعل يسير فى الحجرة ذهابا وإيابا ... وهو مطرق حزين ، كأنما فقد أسهما ذات شأن فى « بورصة » أعماله فى « بوخارست » !.... و لم أدر ماذا أصنع لأهون عليه الخطب ... فلزمت الصمت ... وجعل هو يضرب كفا على كف ويقول :

ـــ طلقها ! ...

فاعترضته قائلا :

ـــ أصغ إلىّ لحظة ...

فلم يلتفت إلىّ ... ومضى يقول :

ـــ طلقها « هارون الرشيد » بعد ليلة ... لا بعد ألف ليلة وليلة ! ..

فنهضت إليه متوسلا متذللا :

— يا سيدى ! ... ألا تصبر علىّ حتى أوافيك بالأسباب وأواتيك بالحجج ! ...

فصاح فى وجهى :

— حجج ! .. أتريد أيضا أن تقدم حججا على هذا الكفر ! ...

فأطرقت فى خزى ... ومضى الشيخ يقول :

— يا للقسوة ! ...

فرفعت رأسى قائلا :

— قسوة من ؟ ...

فلم يحفل بى .. وجعل يقول :

— أتزعم أن لك قلبا من لحم ودم ! ...

فلفظت زفرة من أعماق نفسى المهدمة ...

— آه يا سيدى ... إنك تظلمنى ... وحق جمال تلك الفاتنة إنى لم أعرف طعم النوم منذ فارقتنا ...

فأنقذتنى هذه الآهة ... وأقبل على الشيخ مسرعا وقد

انقلب غضبه وسخطه حدبا وعطفا :

— أرنى عينيك أيها المسكين ! ...

ووضع منظاره على أنفه وجعل يحد إلىّ البصر ، كأنه طبيب عيون يفحص عين مريض :

— نعم ... نعم ... أرى تباريح الهوى ، وتباشير الألم ...

— تباشير ... ؟!

قلتها وأنا أحملق فيه ... لكن الشيخ جذب مقعدا أدناه منى ، وجلس فيه راضيا باسما ... وأشعل سيجارا وجعل ينفخ الدخان فى راحة واطمئنان ، ويقول :

— الآن ... هات حججك وأسبابك ! ..

فنظرت إلى الرجل طويلا — دون أن أتكلم — نظرة المستطلع المتسائل عن اغتباط هذا الرجل لعذابى ... كأن بينى وبينه ثأرا قديما ... ورفع الرجل سيجاره عن فمه ، ولحظنى بطرف عينه ، وقال :

— قبل ذلك أريد أن أسألك :

هل تعرف شيئا عن ناتالى ...؟

فأجبت :

ــ مطلقا ... امرأة فاتنة وكفى ! ..

فقال :

ــ اسمح لى إذن أن أقول لك إنى أعرف أكثر منك قليلا ... لقد فتن بها ــ بين من فتن ــ ثلاثة رجال ، أولهم : مات منتحرا ...

فتراجعت ذعرا فى مقعدى صائحا :

ــ الله أكبر ! ...

فلم يهدئ الشيخ من روعى ، ولم يلتفت إلىّ ، ومضى يقول :

ــ وثانيهم : فقد ثروته ...

ــ معقول .... والثالث ؟ ...

ــ الثالث ... وكان فنانا ...

ــ آه ....

ونهضت أرتمى على قدمى الشيخ :

ــ أتوسل إليك ... أتوسل إليك أن تنقذنى مما أنا فيه ... قبل فوات الأوان ! ...

فلم يعبأ بى ... وجعل يقول :

ــ والثالث ...

فصحت به :

ــ أريد أن أعرف ما حدث للثالث ... ارحمنى ! ... لقد تبت وأنبت ...

ــ والثالث ... كان فنانا ... موسيقيا .

فبادرت صائحا :

ــ آه ... أحد أمرين : إما أنه باع « الكمنجة » وإما إنه شنق نفسه بالأوتار ! ...

فابتسم الشيخ وقال :

ــ لا هذا ولا ذاك ... وضع لها « فالس » يعد من خير ما أنتجت قريحته ...

فاطمأنت نفسي قليلا ... وهدأ ثائرى ، وقلت كالمخاطب لنفسي :

ـــ نعم ... ليس للفنان الحق فى أن يموت بالحب أو بغيره ، قبل أن يؤدى الأتاوة إلى إله الفن ! ...

فقال الشيخ :

ـــ لقد قالت هى أيضا ذلك ...

ـــ ماذا قالت ؟ ...

ـــ قالت ونحن نتآمر عليك ..

ـــ تتآمران علىّ ؟!...

فأحس الشيخ أن لسانه قد زل ... ولم يستطع التراجع ، فأقبل علىّ قائلا :

ـــ آن الأوان أن أعترف لك أيها الصديق بما كان من الأمر ...

ـــ تعترف ... ؟!

قلتها فى دهشة ... وقد أدركت أن القناع سيسقط أخيرا على وجه حقيقة أخفيت عنى ... وتنحنح الشيخ وقال :

ـــ قبل كل شىء ينبغى أن تعلم أنى من هواة الرياضة ... وأحب الرياضة عندى تسلق الجبال وصيد الوعول ... أما

التسلق فها أنذا آت منه ... وأما الصيد فإن موسمه يبدأ فى سبتمبر ... وأحيانا فى أكتوبر ... هذا يتوقف على المنطقة وعلى ...

فقاطعته قائلا :

ـــ أحسب أنك أردت أن تحادثنى فى أمر يتعلق بى ... ؟

ـــ إنى إنما أتكلم فيما يتعلق بك ... إن موسم الصيد فى سبتمبر أو فى أكتوبر : أى بعد شهر طويل ... وإنى لأنتظر افتتاح الموسم نافد الصبر ...

ولقد تحدثت فى ذلك إلى الجميلة فى القطار ساعة العشاء ... فإذا هى أيضا تحب الصيد ... كل أنواع الصيد : صيد الوعول ، وصيد القلوب ... وجاء ذكرك ... وطاف بخاطرنا وصف صاحبك لك ساعة الشاى أنك « عدو المرأة » ، فراهنت الجميلة معى على أن تصوب إلى قلبك سهما يدميه ، ويستقر فيه قبل صياح الديك ، فما رأيك ؟ ... إنى أتمنى أن تربح الفاتنة الرهان .. فليس من الكياسة ـــ وقد افتتحنا معا الصيد ـــ أن أجعل سهمها يطيش ! ...

وسكت الشيخ ... ونظر إلى باسما ...

فنظرت إليه ناقما ... وقلت فى سخرية مُرة :

— ما كان أغناكما عن هذا التجشم ، وافتتاح موسم الصيد فى الصيف من أجل قنيصة هزيلة ! ...

فقال الشيخ وهو يرسل الدخان فى الفضاء :

— قلبك الكبير ليس فريسة هزيلة ! ...

فلزمت الصمت قليلا ... وأطرقت لحظة ... ثم قلت :

— والآن ... أنت مغتبط بهذه الرياضة ... وبرؤية دمى يشخب ... ؟

فقال :

— لقد نبهت الجميلة إلى مسألة الدم هذه ... ولقد تكفلت لديها بتضميد الجرح ... غير أنها قالت :

— لا « شأن لك به ... إن دم الفنان من نصيب إله الفن دائما » ! ...

فلم أجب ... وجعلت أفكر ... وقد انكشف لعينى كل الأمر ... فما هو إلا لعب هازلين مترفين .

فنهضت ومددت يدى إلى الشيخ الثرى قائلا :

— وداعا يا سيدى الرياضى البارع ! ...

فصاح بى :

— هكذا سريعا ! ...

فقلت :

— نعم ... ينبغى أن أذهب سريعا ...

— إلى أين ؟ ...

— إلى إله الفن ... ما دمتما قد خرجتما من الأمر وبرئت ذمتاكما ... وتركتمانى بدمى هبة له ... فلأذهبن إليه ... وهو لا ريب شاكر لكما العطية ...

— وأين هو ؟ ...

— فى المعبد ...

— وما هو عنوان المعبد ؟ ...

— يحفظ بشباك البوستة ! ..

فضحك الشيخ وقال :

ـــ إنه إذن كثير التنقل ... يذهب فى كل جهة بمعبده كما أذهب أنا بحقيبتى ...

ـــ ويحب التسلق مثلك ... ولكن حباله من نوع آخر ...

فأمسك الشيخ بيدى وجذبنى إلى المقعد قائلا :

ـــ اجلس هنيهة ... وحدثنى عنه ... !

فسحبت يدى فى رفق وقلت :

ـــ لا أستطيع ذلك الآن ... أعدك بذلك فى يوم آخر ... أما الآن فأرجو منك أن تدعنى أذهب ...

فنظر فى عينى مليا وقال :

ـــ أتذهب إليها ؟ ...

فاختلج قلبى :

ـــ من هى ! ...

فقال الشيخ فى نبرة المتسامح :

ـــ فاتنتنا ...

ـــ الراقصة ! ..

قلتها فى شىء من عدم الاكتراث المصطنع ، لا أظنه قد خفى على الشيخ ... فقد لحظته ابتسم ... لكنى مضيت فى كلام الخيال لأستر حقيقتى المضطربة :

ـــ بل إنى ذاهب إليه هو ...

فقال الشيخ فى تهكم خفيف :

ـــ إله فنك ! ...

ـــ نعم ..

ـــ وما وجه العجلة ؟ ... ما زال فى الوقت فسحة ... ونحن ما زلنا فى الصباح الباكر ... وما أحسبه بعد قد استيقظ هذا الإله البوهيمى ! ...

فقلت :

ـــ إنه يتناول طعام إفطاره الآن ... وأمامه الإبريق والفنان ، وهو لا شك ينتظر دمى حارا !..

وأسرعت بتحية الشيخ ، وخرجت من حضرته فى شبه ركض ...

٥

عدت توا إلى مسكنى فى ذلك « الأستديو » فلم أجد أثرا للراقصة ... وهذا أمر طبيعى ... لقد انصرفت بأمتعتها ... ولم تترك لى إلا بضعة أسطر خطتها بالقلم الرصاص ، تحت كلمتى التى كنت قد تركتها لها فوق المكتب ... ولم تكن الورقة فى المكان الذى وضعتها فيه ، بل وجدتها فى فم الدب الذى يزين جلده الأبيض أرض القاعة الكبرى .

فتحت الورقة وقرأت هذه الكلمات :

« سيدى :

وأنا لم يبق لى إلا أن أطرح القوس والنشاب وأذهب ... نفير السيارة يدعونى بالباب ... ونفير الصيد يؤذن بالانتهاء

قبل صباح ! لقد فزت القنيصة والسهم عالق بقلبها ... وكل بغيتنا الرياضة ، لا الاحتفاظ بالجلود ... شكرا على الضيافة ،

تاتالى ... »

فطويت الورقة ، وألقيت بها على الأرض بعيدا ... وجلست على جلد الدب ... وأسندت رأسى إلى رأسه ، وقلت مخاطبا نفسى فى زفرة المحزون وآهة المجروح :

— لا تريد أن تحتفظ بجلدى ؟...

* * *

مرت اللحظات ، وتعاقبت الساعات ، وأنا فى مكانى لا أبدى حراكا ... لقد فقد كل إدراك للوقت ... فلم أدر هل انتصف النهار أو مالت الشمس إلى المغيب ... ولقد غامت السماء ... كما غام كل شىء فى عينى ... ولم أحس الجوع ... ولم تنزع نفسى إلى غير هذا السكون الكئيب ...

ورفعت رأسي آخر الأمر ... ونظرت إلى ما حولى ... فخيل إلىّ أن كل شيء نائم جامد لا روح فيه ... فأزهار « الميموزا » و « الهورتنسيا » بدت لى كأنها مطرقة هي الأخرى ... وعروس الرقص « تربسيكور » راقدة في إطارها كالمومياء ... والنور الذى كان يتدفق من الجدران البلورية فيملأ المكان إشراقا ، إنما يملأ الآن قلبي ليلا حالكا ... كيف أستطيع الاقامة في هذا المسكن الآن ... إن تلك الراقصة قد أفسدته علىّ ... لماذا دخلته لتخرج منه وشيكا ؟ ... لماذا جملته بوجودها وعطرته بأنفاسها وأحيت جماده بروحها لتتركه بعدئذ أوحش من القبر ؟ ...

آه ... بكم أشترى لحظة أخرى ، أراها فيها واقفة في هذه القاعة ، وهي في ذلك « الروب دى شامبر » الحريرى القرمزى الموشى بذهب في لون عينيها ! ...

إنى لم أنم الليلة الماضية ، وهي بالقرب منى ... فهل أنام الليلة المقبلة ، وهي بعيدة عنى ! ...

وارتعدت لهذه الفكرة و لم أحتمل تصورها ... فوثبت كالمجنون إلى الطريق أبحث عنها ... وذكرت أنها تنزل فندق « إدوارد السابع » ... فقلت : هي ولا شك هناك ...

فاستوقفت سيارة مارة انطلقت بى إلى الفندق ...

ودخلت من ذلك الباب الدائر إلى البهو ، وسألت — في عجلة — موظف الفندق عن السيدة فقال لى :

— إنها في الخارج ... لم تعد إلى الفندق بعد ؟ ...

فبادرت أسأل :

— ومتى خرجت ؟ ...

— بعد الغداء ...

وكدت ألقى سؤالا آخر :

— مع من خرجت ؟ ...

ولكن الله عصم لسانى من الزلل ، وحرت فيما ينبغى أن أفعل ... ورأيت آخر الأمر أن أذهب ، ثم أعود في المساء ... فخرجت إلى مشرب صغير في منعطف الطريق ...

فجلست إلى مائدة من موائده ... وطلبت كوبا من الجعة ، وضعته أمامي ، ولم أمد إليه يدي ، فقد كان جسمي وروحي بين يدي صورة « ناتالي » ...

* * *

جاء المساء ... فعدت إلى الفندق أسأل عن الجميلة فقيل لي أنها جاءت ... فأخرجت بطاقتي ودفعتها إلى موظف الفندق ، ورجوته في أن يقدمها إليها ويستأذن لي في مقابلة صغيرة ... وانتظرت في البهو الجواب ، وأنا أتقلب على نار الخوف والقلق ... ومضى قليل ، وإذا المصعد يهبط ، وفيه شاب أنيق يرتدي لباس السهرة ، فتقدم إليّ حاملا بطاقتي في يده وقال :

— إن السيدة تعتذر ... إن لحظاتها كلها مشغولة ، وهي تشكر لك الزيارة ! ...

وانحنى قليلا ، ثم عاد أدراجه ، وارتقى بالمصعد ، واختفى عن نظري كما اختفى كل شيء في هذا الوجود ... فقد اسودت

الدنيا في عيني ... وكان خلفي مقعد وثير ضخم فارتميت غارقا فيه ...

* * *

مر زمن لست أدري مقداره ... ثبت بعده إلى نفسي ... وهممت بالقيام والذهاب . وإذا أنا أرى المصعد يهبط ... وإذا الجميلة في رداء المساء البراق ، كأنها قطعة من الشمس تسير على الأرض ... قد خطت في البهو نحو الباب الدائر ، يحيط بها فتيان ثلاثة ، يرتدون « الفراك » ... وكلهم جميل أنيق حليق ... بالمناكب يفتحون لها بابها ... ثم انطلقوا جميعا كما تنطلق الأنشودة المرحة ...

٦

ضربت على غير هدى فى حانات باريس وملاهيها حتى الهزيع الأخير من الليل ... و لم أجرؤ على العودة إلى المسكن قبل الساعة التى قدرت أن النوم يقهرنى فيها قهرا ...

ودخلت فخلعت ثيابى توا .. وألقيت بجسمى على الفراش وأغمضت عينى ... واستعنت بعزيمة ماضية على طلب النعاس ... وخيل إلىّ أنى نجحت ... فلقد رحت فى إغفاءة عميقة ... ومضى وقت لست أدرى أهو دقيقة أم ساعة ... وإذا أنا أنتفض انتفاضة أيقظتنى ، وكأنما شىء قد وخزنى فى قلبى ... فقمت أصيح فى جوف الظلام :

— يا إله الفن ! ... لماذا تفعل بى ذلك ؟ ...

لماذا تصنع بى ذلك دائما ؟! ..

وذهب النوم من عينى ... فجلست القرفصاء فى سريرى . واضعا رأسى فى كفى ، محدقا ببصرى فى سواد الليل المحيط بى . وجعلت أقول :

« آه ... ما من مرة صادفت فيها امرأة هزت نفسى إلا كانت تلك هى النهاية ! ...

لماذا يا إله الفن يروق لك دائما أن تجرح وتذل هذا القلب الذى هيئ لخدمتك ؟! ... » .

وغرقت فى الصمت .. ولكن كلمة « إله الفن » ما زالت تطن فى أذنى ، كأن لها حقيقة واقعة ... وطفقت أردد :

— إله الفن ! ... إله الفن ! ... إله الفن ! ...

نعم ... إنه هو وحده الذى أتوجه إليه مستجيرا من أثقال حياة يقودها بالسلاسل فى موكبه الحافل ...

ونظرت أمامى فى الظلام ... وقلت :

— إنك فى المعبد ! ... آه لو ألقيت إلىّ نظرة من فوق عرشك ! ...

وأحسست شيئا من العزاء فى هذه الفكرة ... وجعلت أبحث عنه بعينى فى الظلام ... ترى أين هو الآن ؟ ... لست أدرى لماذا تمثل لى عندئذ بناء « الموزارتيوم » الفخم الضخم فى « سالزبورج » ! ... هذه المؤسسة الدولية التى اشتركت فى إنشائها الأمم المتحضرة اعترافا بعبقرية « موزار » ... وجعلت منها معهدا عاليا لدراسة الموسيقى ، ومتحفا لآثاره ، ومسرحا لإبراز أعماله ... هنالك فى القاعة ذات الحيطان الذهبية ... حيث أصغيت إلى « سانفونية جوبيتر » تسيل ألحانها كالماء الزلال من أصابع النبى « توسكانينى » ... خيل إلىّ أنى سمعت همسات الإعجاب من إله الفن ...

ثم هنالك فى بناء المهرجان « الفشتسبيل هاوس » حيث شاهدت أوبرا « أورفيوس » و « إيروديس » و « تريستان وإيزولت » لمحت أيضا حركات تصفيق خفية من يدى إله الفن ...

وفى كنيسة « سان بيتر » حيث أصغيت إلى ألحان موزار الدينية ... فحرت وتساءلت :

— أترى عبقرية موزار هى التى خدمت الكنيسة ... أم أن الكنيسة هى التى أظهرت عبقرية موزار ؟ ...

هنالك أيضا شعرت كأن إله الفن كان حاضرا ، ينثر على تلك الأنغام الملائكية ابتسامة الرضا ...

وأمام الكاتدرائية ، ثم فى صدر الجبل ، حيث رأيت قصة « بيدرمان » وقصة « فوست » من إخراج « رينهارت » ... فوجدت التناسق الفنى ، والخلق الذهنى ، والتصور القوى ، على أتم ما يمكن أن يخرج من رأس فنان ممثل ، بدا لى أيضا أن إله الفن كان ناظرا فى سرور ...

نعم ... كل ذلك لا ريب فيه عندى ... إنى موقن بأن إله الفن كان منى غير بعيد أمام كل هذه المظاهر الفنية العظيمة ...

آه ... ولكنى أريد أن أراه الساعة وجها لوجه ... لأجثو عند قدميه ، وأشكو إليه ...

ومرة أخرى أرى فى الظلام — دون أن أدرى السبب — بعض ما رأيت من مناظر « سالزبورج » ... فتلك بحيرة « فولفجانج » على شاطئها فندق « الحصان الأبيض » كأنه طير يرد الماء ... وهذه بحيرة « زل آم سى » فى قاع جدران عالية من جبال تحيط بها ، كأنها آنية من الخزف الأزرق ، صنعها مهرة فنانى « فينيسيا » .

نعم ... ها هنا الطبيعة الإلهية ، والعبقرية الآدمية ، تلتقيان ! ...

ها هنا يد السماء فى هذه الجبال والبحيرات ... ويد الإنسان فى هذه المؤلفات التى خلقها « موزار » تتصافحان ! ...

فى هذا البرزخ بين الأرض والسماء ... وفوق هذا الجسر بين القدرة العلوية ، والموهبة البشرية ، لمحت فى الظلام عجلة تشبه عجلات قدماء المصريين ، تأتى مسرعة ، يجرها

ثمانية جياد شهب ، كتلك الجياد المطهمة الجميلة التى شاهدت رسمها يزين سقف قاعة التدخين الكبرى فى مبنى المهرجان ! ...

وتقدمت العجلة فى دوى : من صليل السلاسل وصهيل الخيول ... يحف بها موكب لم أر له آخرا ... و لم أستطع أن أميز وجها من الوجوه ... فقد كنت فى ذيل الصفوف ... أسير دامى القدمين ، مقيدا فى أغلال من حبال « الليف » تربطنى مع غيرى من الألوف ... كأننا أسرى من العبيد خلف عجلة رمسيس المنتصر ...

ووقفت العجلة ووقفنا أمام بحيرة « زال آم سى » وقد صفا ماؤها صفاء دمعة الخنساء ... ورق النسيم ... وتألق حلى السماء ... وإذا أجسام بضة مضيئة كأنها قطع النور تسبح فى البحيرة ... ثم تخرج متدثرة فى غلائل دمقسية مختلفة الألوان ... وإذا هى ترقص حول العجلة رقصات إلهية ، كأنها رقصات « سالومى » فى السبع غلائل الحريرية ...

فحددت البصر إلى الراقصات الجميلات ... فإذا بينهن نساء قد عرفتهن فى يوم من الأيام ...

فتلك « سنية » وتلك « ريم » وتلك « سوزى » وهذه ... عجبا ... عجبا يا إلهى ... وهذه « ناتالى » ...

نعم ... هذه « ناتالى » بعينها ، فى تمايلها اللطيف الذى يماثل تمايل السنبلة فى الحقول ... كما رأيتها تفعل على وقع أنغام « رقصة الأزهار » لـ « تشايكوفسكى » ... ورقص الجميع عند أقدام إله الفن ... تحت أنظار العبيد الملتهبة ... وحدق الإله فى عيون أسراه ... وأدرك ما بهم ، فسلم إلى كل راقصة قوسا ونشابا وبضع زهرات ... فقذفن الأسرى بالزهرات ... فالتقطوها كالمجانين ... وأراد بعضهم أن يقطع الحبال ويجرى نحوهن ، فأومأ إليهن إله الفن ... فرفعن القسى فى أيديهن ورمين ...

آه ... إنى أعرف الساعة فى قلبى سهاما أربعة منغرسة

فيه كأنها السنابل ... آخرها ذلك السهم المنطلق من قوس الراقصة البولونية ...

وصحت عندئذ صيحة مدوية التفت إليها إله الفن قائلا :

— من هذا ؟ ...

فرفعت صوتا متمردا قاصفا :

— لماذا تفعل بنا هذا ؟ ...

فنظر إلىّ حيث أقف ... وقال :

— عبد يعترض ؟! ...

فقلت فى ذلة وإطراق :

— حاشا أن أعترض ... إنما أنا أسأل عن العلة ... وأطلب أن أفهم الحكمة ...

فأجاب فى هدوء وجلال :

— أنتم جميعا فى خدمتى ... أنتم لى وما ملكت أيديكم ... أنتم رقيق مشدود إلى عجلتى ... لكم أن تنظروا إلى راقصات معبدى ... وأن تتأملوا جمالهن ... وأن تلتقطوا

أزهارهن ... وأن تستلهموا حسنهن وحبهن ... ولكن اذكروا دائما أنهن لسن لكم ... كل ما لكم من متاع حقيقى : هو هذه الحبال من الليف التى تربطكم أبدا إلى عجلتى ! ...

فصحت به :

ـــ أبهذا تخدمك ؟ ...

فقال :

ـــ نعم ...

فصحت :

ـــ ماذا نصنع لك ؟ ...

فقال :

ـــ تصنعون لى أردية جميلة ...

فأدركت عندئذ حقيقة الموقف ... غير أنى تجرأت وقلت :

ـــ وهل نستطيع ذلك وقلوبنا قد رشقت بالسهام ؟! ..

فابتسم وقال :

ـــ ألم تر الخياط الذى يفصل لك رداءك ؟ ... كيف يعلق بذراعه قلبا من القطن قد غرست فيه الدبابيس ؟! ... هـذا عمله ... أنتم أيضا معشر الخياطين المنوطين بصنع أرديتى ، يجب أن تكون لكم قلوب قد غرست فيها السهام ! ... هـذا عملكم ! ...

فتفكرت قليلا ... وقد أفحمنى الجواب ... وأشرت إلى الراقصات قائلا :

ـــ وهؤلاء هن المكلفات بتوريد الدبابيس ! ...

فأجاب فى ابتسامته الخفيفة :

ـــ أراك الآن قد فهمت ...

فأطرقت مليا ... وقلت مخاطبا نفسى ! ...

ـــ نعم ... نعم ...

ثم التفتُّ إليه وأنا أخر ساجدا مستغفرا :

ـــ عفوك ! ... لقد نسيت أن هذا من علمنا ... وأن تفصيل أرديتك فى حاجة إلى كل هذه الأدوات ...

وشعرت بعدئذ براحة تملأ نفسي ، وأخذني نوم عميق ... لم أستيقظ منه إلا ظهر اليوم التالي ... فنهضت وأنا لا أذكر ناتالي ... ولكني ذكرت صاحبي « موريس » ... وقلت :

ـــ عجبا ! ... يخيل إليّ أن هذا الخبيث قد حدثني في أمر يشبه مسألة الدبابيس ... ولقد تمنى ذلك هو أيضا ... وأراد أن يحملني على الإكثار من صنع الأردية ... كأنه أحد سماسرة الخياطين ! ...

وارتديت ثيابي على عجل وأنا أقول :

ـــ إلى العمل ! ... إلى العمل ! ...

ويممت شطر « شباك البوستة العمومية » حيث وجدت في انتظاري رسالة من صاحبي الفرنسي يقول فيها :

«صديقي ...

أبادر بالكتابة إليك ، لأن قلبي يحدثني أن الرقصة الأخيرة قد أنتجت أثرها .. وأن قلبك النائم المتثائب قد استيقظ ... وإني لأسمع له على البعد صوتا كفوران الشمبانيا

ذات الحبب في الزجاجة المختومة ... فعلينا إذن أن نسرع إليه بالكؤوس ...

إني أتناول العشاء دائما في قهوة « سيرانو » التي تحبها بـ « مونمارتر » ... إني أنتظر ... والأعمال تنتظرك ... فارجع إلى أحضان الفن »

موريس

فوضعت الرسالة في جيبي ... وتنهدت من أعماق قلبي المرصع بالسهام :

ـــ نعم .. وا أسفاه ! ... ليس لي دائما غير أحضان الفن ! ...

رقم الإيداع ١٩٣١ / ٨٨

الترقيم الدولي ٨ — ٠٣٦٢ — ١١ — ٩٧٧